بار

عُمر حمّاد

بار
عمر حماد
تدقيق لغوي : سكون لخدمات الكتب
تصميم الغلاف : عبير محمد
رقم ايداع: 2018/27263
ترقيم دولي: 978-977-6594-51-7

دار فصلة للنشر والتوزيع
العزيزيه - منيا القمح - مصر
٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
fasla,pub@gmail,com
FB .Com/Fasla .Pub

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي نوفمبر ٢٠١٨

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

بار

عُمر حمّاد

فصلة
للنشر والتوزيع
Fasla Publishing & Distribution

رواية بار

(#جُرعة_اكتئاب_كافيَة_لقتلِكَ)

تحذيرات

.

ربما يكون هذا الكتاب هو مجرد حالة اكتئاب لي.. أعلَم أنَّك لا دخلَ لكَ بها.. ربما لا تشعُر بما كنتُ أشعُر به.. ربما تَلعنني بسبب اكتئابي المُبالَغ فيه.. أنتَ تشتري الكتُب، لتزيدَ من معرفتك، أو لتطوير ذاتك، أو للاستمتاع... هنا لا يوجد ذلك، هنا أنتَ مُقبِل على غُرفة ستسمع هؤلاء مَنْ يصرخون كل يوم بدون صوت، سترى قلوبًا محُطَّمَةً.. ستُشفِق عليكَ نَفْسُك كثيرًا.

نصيحة، اترك الكتاب وارحَل!

أكرِّر.. لستُ مسئولًا عن ثمَن الرواية أو الوقت الذي ستُنفِقه عليها.. لستُ مسئولًا عن أي دمعة قد تهبِط منكَ أثناء قراءتكَ هذه الرواية.

لستُ مسئولًا لخروجك مُكتئبًا أو حزينًا، لستُ مسئولًا إطلاقًا،ةلأنَّ كل ما مررتَ به كنت أنتَ المسئول الوحيد عنه.. ليس أنا!

إهداء

لكلّ من يسهَر إلى ما بعد الـ ١٢,٠٠.. إلي كل من يُقدِّسون القهوةَ واللون الأسوَد.. أشعُر بكم كثيرًا، لذلك أُهديكُم هذا الكتاب.. وأحبكُم كثيرًا.. وأتمنى لكُم الموت!

إهداء ثاني، لأنَّه الكتاب الأوَّل لي

إهداء إلى: أبي «إبراهيم حماد»، وإلى أخي الكبير «نبيل إبراهيم حماد»، وإلى صديقيَّ: «عمر محمد» ، و«عمرو مصطفى»، و«أنَس جاب الله»... رحمكم الله.

وإلى مُعلمي «إسلام صلاح»

إهداء إلى: «سمر صلاح».. أدمن سابق بجروب عصير الكتب.. أو (ماما).

إلى أصدقائي الذين لن يقرأوا الرواية وسيشترونها لأنني صديقهم ليس أكثر!

الإهداء إليكِ... تعلمينَ أنَّكِ هي دون أنْ أكتب اسمكِ.. شكرًا لكِ، لأنَّكِ كُنتِ السبب الحقيقي في التغيير.

شكرًا

إهداء إلى: عمرو مـلَـش

مراجعة لغوية وتصحيح: عمــرو ملَــش

إهداء إلى أمي.. بدونها حتى لا أساوي الصفر!

إهداء ثالث.. خلاص آخر إهداء

إلى مُعلِّمي.. أستاذ «بلال صابر المدخوم».. ربما أخطأتُ في الماضي.. ارتكبتُ خطئًا ارتكبَه طفلٌ في السابعة من عُمره وليس السابعة عشرة! وجدتُ أنَّ تلكَ الطريقة هي المُثلى التي أستطيعُ أنْ أقدِّم بها لكَ أسفي.. وستظل مثَلي الأعلى أيا عبقري الفلسفة وعلم النفس.. تذكَّرتُ مقولتكَ بعدما أنهيتُ ثانوية عامة: (المناهج خُلِقَتْ للفهم، وليسَ لتلخيصها في أربع ورقات كالآخرين، لتحصُلَ على مجموع عالٍ.. ما فائدة الوصول لقمَّة الجبل إنْ كنتَ لم تفهمْ شيئًا في الصعود).

آسف..

الفصل الأول

الحب هو الشيء الوحيد القادِر على تحويل الذهب إلى ماس... (أو صدأ)

***

تقِف بعيدًا على ناصية الشارع.. يُراقبها من بعيدٍ وهو ينظُر لها بشغف.. جميلة، وفاتنة إلى أقصى حد.. شعرها مُموَّج كسلاسِل الذهب، وعيونها البُنيَّة الصافية الرائعة تُشبِه عينيه كثيرًا.. لا يعرِف شيئًا في الحياةِ سوى أنَّه يُحبها كثيرًا.. يُحبها للدرجة التي لا تستطيع أنْ تُفرِّقَ بين الواقع والخيال.. شاب مُمتلئ الجسد، طويل القامة.. يمتلك شعرًا يتَّخذ الشكل المموَّج القصير.. أحمَق لأقصى درجة.. لا يستطيع أنْ يفعَل شيئًا إلا أنْ يُضحِكها ببعض المواقف التي لم يكُن يقصدها.. لكنَّه رآها تضحَك، رأى ابتسامتَها التي تزيد من دقَّات قلبه.. فتعمَّدَ دائما أن يفعل تلكَ المواقف الساذجة، ليراها فقط تبتسِم.. كان يُهمِل مُذاكرة جميع المواد، ويذاكر المادة الوحيدَة المُشتركَة بينهما.. يسهر! لا حُبًا في السهَر، إنما ليُراقب صفحَتها الشخصيَّة.. يظل أغلَب الوقت لا يُفكِّر إلا بها.. هي فقَط.. لا شيء آخر، كان يمتلِك الصفات المؤكِّدة للعلاقة الفاشلة.

الساعة الـ ٨ صباحًا.

يلبس، ليذهب سريعًا إلى درس الجغرافيا.. لم يُحب تلكَ المادة يومًا.. لم يكُن يملك الوعي الكافي لأنْ يكون أحد أبطال الثانوية العامة الذين يُصارعون على دخول الطب أو الهندسة.. فـ رضيَ بواقِعه ومستواه الضعيف، وتقبَّلَ المجال الأدبي بكل استسلام، وقلَّة حيلَة.. يسير في الشارع وهو يُفكِّر كيف سيراها.. كيفَ يستطيع التحدُّث معها.. يُريد أنْ يجري أي نقاش، يكتفي فقط بنظرة من عينيها، ذلك السحر الذي لا يعلمه أحدٌ سواه.. إنَّها رائعة، رائعة ليُصبح هو الشخص الوحيد الذي أصبح مُسيَّرا لها.. خرجَ عن إرادة الرب.. وأصبحَت

هي الإله الخاص به!

كالعادة يصِل أوَّل شخص إلى الدرس، ينتظرها أنْ تأتي، لكنَّها لم تفعَل.. تبدأ الحصَّة وارتسمَ على ملامح وجهه الحزن.. شاردٌ في الكتاب الذي أمامه وعقله مُستمر بالتفكير، لماذا دائمًا تأتي مُتأخِّرة؟ ألا تستطيع أنْ تأتي مُبكِّرة قليلًا! أريدُ أنْ أتحدَّث معها في أي شيء.. أريدُ أنْ أسمعَ صوتَها الهادئ الذي يَطوف بي.. الذي يخطف روحي إلى الطبقة السابعة للسماء.

كم يريدُ أنْ...

يقاطِع تفكيرَه صديقه «مروان»:

- «روان» هتيجي، اصبر انتَ بس شوية.

نظرَ لهُ «آدم» وهو يشعر بالطمأنينة لصوت صديقه، ويقول له ـوهو يلتفِت إلى ذلك الفتى الأسمَر القصير، ذو العيون البنيَّة والجسَد النحيف والشعر الأصفر الناعمـ :

- أنا مستني أهو الحصَّة بدأت ولسه مجتش.

- هتيجي متأخَّرة شويَّة زي المرة اللي فاتت.

اندهشَ «آدم» مما قد سمعَه!!

- ثانية واحدة.. انتَ عرفت منين؟

نظرَ للسقف وعلى وجهه ابتسامة واضحَة تُبرز أسنانه:

- عرفت منين؟! انتَ مفضوح جدًا يابني.. قلقَك الزايد ومبتكونش مبسوط إلا في وجودها.. دا المدرِّس بقى بيتعمِّد إنه يهزَّقها علشان يشوف رد فعلك و..

نظرَ «آدم» إلى تلك الفاتنة التي تقترِب من الباب في سرعةٍ وتعجُّلٍ وتَطرُقُ الباب قبل أنْ تدخُل، ونسي حديث «مروان» نهائيًا.. لا يشعُر بوجوده من الأساس..

نطقَت «روان» وهي تشعُر بالقليل من الإحراج:

- أنا آسفة جدًا يا مستر على التأخير.

- هو الأسَف بتاعك دا بيكون كام مرّة؟!! ادخُلي واتفضلي امتحان النهاردة وقبل ما تمشي سيبيلي رقم والدك.

- والله بس أنا...

- مش عايز رغي كتير اتفضَّلي ادخلي!

قالَها «سامر» بعصبية زائدة.

وضعَت رأسَها في الأرض وأخذَت ورقة الامتحان بدون أنْ تنطق بحرف، كانت تجلِس خلف «آدم» مباشرة...

كان الامتحان سهلا جدًا بالنسبة لـ«آدم» ، فهو لا يذاكر سوى تلك المادة وعينيها التي غرق بها.

انتهى «آدم» سريعًا من الامتحان، ليستغل لحظة خروج «سامر» وينظُر إليها ويُخبرها أنْ تُعطيه ورقَتها، وتأخذ هيَ ورقته سريعًا... بدون أن تنطِق أخذَ الورقةَ منها، وأعطاها ورقَته، كان يفعل ذلك، ليلمَح عينها، ليُجري أي حديثٍ معها.. يعلم فشلَها في الدراسة جيدًا، كان يُحاول أن يساعدها بكل ما يستطيع.. كانت أشبَه له بروحه التي لا يستطيع العيش بدونها.. روحها الكامنة بداخله..

- انتهى وقت الامتحان.

قالها أ/ «سامر» وهو يتقدَّم لسحب الورقة.. كان «آدم» سريع الكتابة لدرجة أنَّه انتهى من إجابة الورقة الأخرى أيضًا.

بعد انتهاء الامتحان جميعهم رحلوا ما عدا «آدم» و»روان»..

جلست «روان» بجانب «آدم» وأخبرَته بصوتها الهادئ:

- شكرًا.. شكرًا جدًا على اللي عملته دا.

نظر «آدم» إلى الأرض وقد احمرَّتْ وجنتاه، وخرج الكلام منه مُتقطِّعا من شدَّة الخجل:

- لا عادي.. أنا بس علشان يعني ميتكلِّمش أو علشان متمشيش من الدرس.

- شكرًا جدًا يا «آدم».. ممكن بقى أطلُب منك طلَب واحد؟

- آه آه طبعًا.. اتفضلي.

- أنا عايزة مُلخَّصات الجغرافيا علشان أنا فعلًا محتاجة أذاكر.

فتحَ «آدم» حقيبتَه وأخرجَ منها عشرين ورقة فقط خاصة بالجغرافيا، وأعطاها لها:

- اتفضّلي.

نظرَت للورق سريعًا وأخبرَته:

- بس دا مش ورق مستر «سامر».

- لا.. أنا اللي ملخَّص الورَق دا، كنت سهران بلخَّص الأسئلة المهمة.

نظرَت له وارتسمَت على شفتيها ابتسامة سعادة وشكر:

- «آدم» انت إنسان طيِّب أوي.. مش عارفة أقولك إيه أكتر من شكرًا والله!

رفعَ عينه من الأرض ونظرَ إلى عينيها وكأن الكلمات قد هربَت منه.. وكأن لسانه شُلَّ تمامًا.. ونطقَ بعد صمتٍ ليس بطويل:

- العفو.

وقفَت «روان» وأعطَته ظهرَها لترحَل عنه، كما يرحل القمر بعد ليلٍ طويلٍ.

- «روان»..

قالَها «آدم» في سُرعةٍ.. وحاولَ أن يبقى ثابتًا.

- ممكن الأكونت بتاعك.. يعني علشان لو في حاجة جديدة ابعتهالك؟

ابتسمَت «روان» وهي تنظُر له:

- على فكرة هو انا مينفعش أحط ولاد عندي علشان أهلي.

شعر «آدم» بالإحراج والتوتر وكان واضحًا على وجهه.

- أنا آس..

قاطعَته «روان» وهي تنظُر إليه:

- بس انتَ ممكن تكون عندي عاادي.

رفعَ رأسَه ونظرَ إليها وهو في غاية السعادة، كان يشعُر أن طلبَه لدخول الجنة قد قُبِل.. أخرجَت «روان» هاتفها، وفتحَت موقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك.. ولم تنظُر إليه وقالت:

- اسم الأكونت بتاعك إيه؟

- آدم.. آدم عبد الحميد بالإنجليش

- حاطط صورة مين؟

- بِنت تشبِهلك.

نظرَت «روان» إلى «آدم» في دهشةٍ!

- تشبهلي؟!!

استيقَظ «آدم» من أوهامه سريعًا، وقال لها:

- أديل.. صورة أديل.

ضحكَت «روان» بصوتٍ عالٍ.. وكأنَّ الدنيا كانت تضحَك له.. ضحكَ هو الآخر وكأنَّ روحه تتراقَص على أنغام ضحكتها.

هدأَت ضحكات «روان» قليلًا.

- حرام عليك.. أنا شبَه أديل برضو؟! دا فرق السما والأرض يابني.

نظرَ «آدم» إليها، وقال في دخيلة نفسه:

- أجمل كمان من مية أديل!

وضعَت «روان» هاتفها في جيبها، وقالَت:

- باي بقى علشان اتأخَّرت ولازم أكون في البيت، لأن عندي درس تاني كمان ساعة.

نظرَ «آدم» لها وفي عينيه فرحة الدنيا وما فيها، وهو يرفع يده ببطء ويُحرِّكها:

- باي.

في كلِّ مرة يُخبر نفسه أنَّ تلك الجُرعة الأخيرة.. يعِدْ ولا يفِي.. كاذب.. ذالك التراب الأبيض الذي أصبح مصدر سعادته الوحيد.. أو تعاسته الأبدية.. بين إصبعيه أنبوبة صغيرة.. هاتفه يرن للمرة العشرين لا يسمعه ، يتعمد دائمًا أنْ يغلق هاتفه.. ينظر للهاتف بملل ليجده محمود، صديق طفولته، صديقه الدائم.. يغلق الهاتف ليستمتع بتلك الجرعة في صمتٍ تام..

أخذ الأنبوبة وبدأ برص الهيروين المُلقَى أمامه على الطاولة.. ويسحَب نفسًا عميقًا ويهدأ.. ذلك الهدوء الذي يُشعرك أنَّ كلَّ شيء في نهايته.. يجعلك تغيب تمامًا عن هذا العالم.. لا تشعُر بأي شيء.

ينظُر إلى أوراقه والقلم نظرةَ اليأس وقلَّة الحيلَة سابقًا.. أصبحَت الآن نظرةَ لا مُبالاة.. موهبته قد تاهَت.. سُمْعته بين أهله وأصدقائه تدمَّرت.. انطفأ ذلك البريق في عينيه.. اختفى تميزه كما يختفي الماء وسط النار.

أشعلَ سيجارَته وهو في حالة اللا وعي.. يُخرج دخانه في منتهى الهدوء، يُحاول أن يبقي النيكوتين في مُخِّه مدَّةً أطول.. يتمنى أن تقُوم قيامَته أو ينتهي العالم عند آخر نفس من سيجارته.

ماذا حدَث! كيفَ أصبَح هكذا؟ لا يهم، فقد حدثَ وأصبحَ وحيدًا وسط هدوء الليل.

لماذا لا ينتحِر! في كل مرةٍ يُحاول وينقذه القدَر، يلعن القدر بقدر لعنه لكل من يُحاول إنقاذه.

- عمر.. عُمر فُووووق يا حبيبي أنا أُمَّك.

ينظُر للغُرفةِ ويلتفتُ سريعًا، لكنه لا يجد شيئا!

- انتَ أصغر مني، مُستحيل أرتبِط بشخص أصغَر مني.

- انتَ فاشِل، صدَّقت إنَّك مُمكن تكون حاجة؟!

- اخرُج من البيت، إياك أشوفَك هنا تاني، انتَ بتجيبلنا العار!

أصواتٌ في عقلِه تُطارده، يحاول أنْ يُصمِت كل هذا.. أصبحَت الجرعة لا تكفي.

أخبرُوني أنِّي فاشل.. حتى صدقتُ هذا.. أصبحتُ أرى أنَّ ذلك أمرًا واقعيًا، لا يحدث أي تغيير أو أي شيء بل أصبَح الأمر يزداد سوءًا عما سبق.

تلك الغرفة المُطلَّة على الشارع، آخر ما تبقى له.

ينظُر للغُرفة وقطرات المطَر تهبِط، ينظُر إلى الناس التي تتحرَّك بسُرعةٍ وتركُض، ينظُر إلى اثنين عاشقين يرقصان تحت زخات المطر، ينظُر إلى كل شيء وهو صامِت وعينه الجامدة، ووجهَه الذي تحوَّل إلى صنَم، لا تُميِّزه أية مَلامح.

يُغلق الستائر، تزداد الغُرفة ظُلمةً، أصبح الظلام جزءا منه، لا يوجد بصيصٌ من النور، أغلقَ كلَّ شيءٍ وأصبحَ ينظُر إلى اللا شيء.. لأول مرةٍ منذُ فترةٍ طويلةٍ يُريد أن يبكي، ولكن كيف! فقد نسي كيف يبكي، يريد أن يتكلَّم ولكن لن يسمَعه أحد، أن يكتُب ولكن ما من أحد أصبَح يقرأ!

يريدُ أن يموت، أن يُنهي كلَّ تلك المهزلَة... وسريعًا ينام على الأرض ويضم رُكبتيه في وضعيَّة الجنين وينام.. يهرب من الأفكار الذي يعلم تمامًا أنَّها ستُطارده في كوابيسه، أصبحَ لا يري غيرها.. هيَ.. هيَ فقط!

***

الفصل الثاني

(هي مجرد بداياتٍ تُخفي الكثير.. كلنا يُحاول التصنُّع بشخصيَّةٍ لا يملكها.. ولكنه تمنَّاها.. مُجرَّد تمنٍّ لا يُفيد بشيء)

***

لم يُصدِّق «آدم» بما يشعر به.. كانت الشوارع وعواميد الإنارة والأمطار تبتسِم له.. لم يكن لديه غايةً سواها.. كأشباه الأحلام التي نتمنى ألا نستيقظ منها.

ظلَّ سارحًا طوال الطريق في جمالها ورقَّتها ونعومة صوتها... كان يتمنى أن يمسك يديها بقوةٍ أو يحتضِنها ويبكي.. يبكي لأنه أخيرًا عرف ما يريد من تلك الحياة يريدها هي فقط.. إنه الحب الذي يجعَل أتفَه الأشياء ذات قيمة.. تلك المشاعر التي تجعلك كالأطفال، فتتعامل بكل تلقائيةٍ وبراءةٍ، لا تشعُر بشخصيَّتك أو سلوكك أو طريقة كلامك... حتى نظرات الناس لا تلحظها، أنت لا ترى سوى مَنْ تُحب فقط!

لم يشعُر بطول المسافة.. تَفَاجأ أنه يجلس في غرفته سارحًا منذ عشر دقائق، استيقظَ على صوت أمه وهي تُخاطبه:

- «آدم» حبيبي عملت إيه في الدرس؟

كانت الحاجة «زينب» تشبه قلبَه الأبيض تمامًا، كانت ذات عيونٍ سوداء صافية، قصيرة القامة، وجسد ممتلئ، ووجه أبيض يزينه خِمار الصلاة... كان يشعُّ من وجهها نورٌ، كانت تثِق بتربيتها وابنها ثقةً عمياء، كانت تُحبه لأقصى درجة.. حنونة بشكلٍ كافٍ لتجعل الجبل ينهار.. تُحبه لدرجةِ أنها كتبت جميع أموالها في البنك باسمه، فلا يوجد غيره وتخشى أن يذهَب عمرها قبل أن تراه بجوار زوجَته وهي مُطمئنة وتحمل أطفاله وتراه سعيدًا فقط.. هذا أقصى ما تتمنى.

نظر لها «آدم» وهو مازال تائهًا.. وبصوتٍ ضعيفٍ نوعًا ما:

- أيوة يا ماما.

- بقولك عملت إيه يا حبيبي في امتحان النهاردة؟

نظرَ «آدم» إليها وهو يبتسِم ابتسامةً هادئةً:

- كان أجمل امتحان يا أمي.. كان جميل لدرجة إني اتمنيت إنه ميخلصش.

قالَت أمه بدهشةٍ ونظرة مكر:

- هو إيه دا اللي ميخلَصش؟!

فاق «آدم» من شروده وقال وهو يضحك:

- الامتحان يا أمي.

- الامتحان برضو؟!

- طبعا يا ماما، هو أنا هكدب عليكي.

- حتى لو كدبت بعرفك.. عجناك وخبزاك كويس.

ضحك «آدم» وهو ينظُر للهاتف. وأكملت الحاجة «زينب»:

- يلا علشان نتغدى سوا.

- لا يا ماما مليش نفس، أنا هخلص شوية حاجات على الموبايل وهذاكر.

- طب كل أي حاجة علشان تكمل.

- عايز أخس الصراحة يا ماما، شايفة جسمي عامل ازاي!

- اااااه.. طيب أنا هتغدى لوحدي.

تركَته «زينب» وهو يفتَح هاتفَه ليقبل طلب «روان» بسرعة ويتحدث معها في أي شيء وأكمل:

- الباب وراكي يا ماما.

أغلقَت البابَ بدون أن تنظر إليه، وفتحَ هاتفَه سريعًا ليدخُل عالم الفيس بوك الذي أصبح عالمه منذ أن قابل «روان» وبقي بجانبها.

قلَّبَ في صفحتها الخاصة ورأى صورها، وكان يحفظها على هاتفه.. ذالك الوجه الملائكي الذي لم يستطِع أن يرى غيره منذ ثلاثة أعوام.. ثلاثة أعوام يراقبها وها قد أتت الفرصة ليقترب منها وكأنها حُوريةً من الجنة أتَت إلى الأرض بالخطأ.. وكأنها لو أنزلت على كافرٍ فآمنَ بمَنْ خلقها بهذا الجمال.. يمر العمر وهو يراها من بعيد.. أصبحَ الآن قريبًا منها.. يتمنى أن يكون الأقرب دائمًا لقلبها.. يتمنى أن يموت بين أضلاع حوَّاء التي علَّمته العشق والشغف.. سيكون الموت بين أضلاعها هو أفضل ميتة له.

رآها أمامه.. (مُتصلة الآن).

- «روان».

لم ترد عليه.. انتظرَ ما يقارب الخمس دقائق حتى رأى أنها (تكتب الآن) و...

- «آدم».. عامل إيه؟

- أنا كويس.. الحمد لله.

- خير في حاجة؟!

- لا مفيش.

- أصل كلِّمتني يعني!

ظلَّ «آدم» متأملًا في الرسالة لبضع دقائق وكان يشعُر بإحراجٍ شديد.. وظلَّ يلوم نفسه.. لمَ فعل هذا؟! ولمَ هي باردة المشاعر هكذا معه! لمَ لا تبادله نفس الشعور! كم هي غبية ألا تعلم أني أفعل كل هذا وأراقبها لأني أحبها.

قاطَع تفكيره صوت الهاتف.. نظر له فوجد رسالةً أخرى من «روان».

- «آدم».. أنا بهزَّر معاك اوعى تكون زعلت.

بدأ يكتب سريعًا:

- لا مزعلتش ولا حاجة.. أنا بكلمك علشان ألخَّص ورق تاني يخص مشكلة كاشمير والهند علشان... درس طويل ونخلَّصه وهبعتهولك أهو.

- ماشي يا جميل مستنيَّة.

شرد «آدم» واحمرَّت وجنتيه.. يا جميل! كان في غاية السعادة من تلك الكلمة التي جعلَته يشعُر أنه خفيف لا يحمله أي شيء سوى الرياح فقط.

أرسل لها الصور.. وظلَّ الاثنان يتحدثان عن حياتهما...

- أنا بسيطة جدًا.. والدي شغَّال في شركة كبيرة، بس هو حاليًا مدير الشركة دي، قديم وموظَّف شاطر جدًا بيترقى بسرعة، وبحبه جدًا، ومثلي الأعلى في كل تصرُّفاته.. بفرح جدًا لما أشتري حاجة أو يحصَل مشكلة أو أيًا كان... وأقول أنا بنت علاء السيد لاشين بلاقي الناس خافِت أو احترموني، بس عصبي جدًا وتقريبًا دا عيبُه الوحيد، ويمكن يكون خوف علينا... مش عارفة.. أما أمي ست بيت بس خريجة معهد تجاري، وأكتر أم حنينة في الدنيا.. بحكيلها كل حاجة وأي حاجة تحصَل لازم تكون عارفة، مش بعتبرها أمي وبس، لا دي كمان صاحبتي جدًا، آه عندي صحاب كتير، بس ماما وعلا حاجه تانية.

- علا؟!

- آه.. دي بنت خالتي وصحاب من واحنا أطفال.. هي أكبر مني بـأربع سنين واحنا الاتنين مع بعض في أي مصيبة، لو رايحة جهنَّم حتى بكون معاها.. وأكتر واحدة بحبها في حياتي، والحمد لله فاشلين زي بعض... وانتَ بقى؟!!

كان «آدم» يُمسِك هاتفه بصمت، مستمتعًا بقراءة ما تكتبه، وعند آخر رسالة أخرج زفيرَه، وأغمضَ عينه وتركَ روحه تكتب تلك الرسالة:

- «روان».. أنا بحبك.

فتحَ عينه وجدَها قد رأَت الرسالةَ.. لكنَّها لم ترُد، طال صمتُها.. شعر بإحراج شديد.. وكان يتمنى أن تنشقّ الأرض وتبتلعه لهذا التصرُّف الغبي الذي قد يكون هو نهاية العلاقة بينهما.. لا يُريد أن يخسرها، لا يريدها أن ترحَل، يريدها بجواره دائمًا.

مرَّت خمس عشرة دقيقة ولم ترد، كان يلوم نفسه كثيرًا، لمَ فعلَ هذا؟ ألم يستطِعْ أن يصبِر قليلا! لمَ التعجُّل في شخصٍ تتمنى أن يظل للنهاية معَك، لمَ لمْ تُفكِّر في الأمر؟! اهدأ اهدأ... قطع تفكيره مرَّةً أُخرى على رسالتها:

- بتحبني ع طول كدا؟!!

- لا من تلات سنين، لما كنا مع بعض في الدروس وانتي مشيتي، كنت بقف تحت بيتِك منتظرِك تخرُجي، مكناش صحاب، كنت بشوفك دايمًا من بعيد، كنت براقِب بروفايلك طول الوقت، وبعدين إحساس الحب بيظهر فجأة، اللي بياخد وقت علشان يحب شخص دا مش بيحبه دا بيقنع نفسه بيه، الحب غَصب عننا بيحصَل في نفس الوقت، غصب عني يا «روان».

مرةً أُخري لم ترد عليه، وظلَّت هذه المرة عشر دقائق.. رأَت الرسالةَ ولم ترد، كانت عينا «آدم» بدأت تدمع قبل أن يكتُب لها:

- «روان» أنا آسف.. مكنش قصدي أقول الكلام دا.. أنا بجد آسف.

رأَت الرسالةَ ولم ترد... شعر «آدم» أن النهايةَ تقترِب، ربما يموت أحد أكبر أحلامه أمام عينه الآن.. الموت القريب أرحم بكثير من حلم ستركُض وراءه بدون أن تلحقه.

- وأنا كمان بحبك.

رأى «آدم» الرسالةَ ولم يصدِّق.. شعر بالقلق الممتزِج بالفرحة بالتوتر.. لم تستِطع عيناه أن تقاوِم فـفاضت بالدموع، وقفَ ورقصَ في غُرفته نسَيَ كل شيء... رقصَ وكأن روحَه وروحها تتراقصان معًا.. شعر وكأنه اليوم يملك الكون بما فيه... الحب هو البهجة الوحيدة في هذا العالم، هو الشعور الذي لا يفنى أبدًا إن كان صادقًا.

- ها.. بجد!!

- آه.. بجد علشان كنت بشوفَك كتير واقِف تحت البيت.. وبلمحَك وانت بتبص عليا دايمًا، حتى كمان صاحبتي قالتلي أنا لما سيبت الدرس ومشيت، انتَ فضلت تدوَّر عليا كتير.. علشان كدا أنا متأكِّدة إني هبقى معاك مطمنة على طول، مين ممكن تلاقي حد بيحبها أوي كدا وفي طيبة قلبك وتسيبه؟

كانت دقَّات قلب «آدم» لا تتمالك نفسها.. سعادة غارمة فيها.. سعادة ستنتهي عاجلًا أم آجلًا.

- وعد إني هفضَل جنبِك.. جنبك لحد ما أموت.. حتى لو انتي بعدتي هكون جنبِك برضو.

- وأنا مش هسيبَك أبدًا.. وعد.

أكملَت:

- ممكن بقى منتكلِّمش مع بعض لحد ما نخلَّص امتحانات، لأن اتبقى أسبوع، احنا ثانوية عامة يا عم «آدم».

- هو صعب عليا، بس موافق.. وأي حاجة محتاجة مُساعدة فيها أنا معاكي وجنبك.

- قشطة.

- قشطة.

ظلَّ «آدم» سارحًا بالرسائِل، يُعيد قراءتها مرارًا وتكرارًا.

وكان لأول مرةٍ يكتُب على صفحته الشخصية:

(وكأنَّ السعادةَ خُلقَت بين يديها).

بعد مرور ساعةٍ من نشر البوست لم يجِد إلا لايك واحد من صديقه «مروان» وبعدها بثوانٍ تعليق:

(نام يلاااا عندنا درس الصبح)

لم يُبالِ بهذا التعليق نظر إلى كم الأصدقاء الذي يملكه على صفحته الشخصية، ولكن لا أحد يُعيره اهتماما.. كان وحيدًا في كل شيء، وحيدًا في الواقع وعلى الميديا، حتى بينه وبين نفسه هو غريب ووحيد.

غرفة مُظلمة.. لا أحد يشعُر بك.. وحيد عارٍ كما خُلقت، ستظل غريبًا بائسًا هكذا إلى يوم تتغيَّر بالكامل.. عزلة طويلة، وفي كل مرة تفشَل في موهبك.. تيأس من نفسك.. تُحاول الانتحار فلا فائدة.. فتبحَث عن طرق سريعة للهلاك.. تُجرِّب النيكوتين وبعدها الحشيش والبانجو لتُهلك رئتيك أكثر، تتجه لجميع أنواع الخمر لتُفتِّت مائدتَك.. ثم تصِل إلى الهيروين.. وتنتظِر أن تُغلَق الستائر

في تلك المسرحية الهزيلة.

يستيقظ في صباحٍ أشبَه بمدينة كل ما فيها مات وبقي هوَ وحده.. يُشعل سيجارته وهو مازال في حالةٍ من اللا وعي.. يُصبح كـزومبي عيناه ذابلتان، جسده نحيف، شعره وذقنه مقاربين لأهل الكهف.. مرحبا بك في المرحلة الأخيرة للاكتئاب والعزلة.. صوت الصمت يسكُن غُرفته.. ينظُر إلى مكتبه، بضع أوراق وقلم به حبر كافٍ لأن يبني دولةً من جديد.. كاتب يئس مما كتبه.. شاعر رحلَت محبوبته.. إنسان قبل أن يتحوَّل إلى وحش.. يقف ويذهب إلى مكتبه في بطء.. يُمسك القلم بعد أن أطفأ سيجارته.. الورقة باهتة لم يُعِرها اهتماما منذ فترةٍ فأهملَها كما أهملَته هي.

يبحَث عن هاتفه ليشغله في صبر...

سبع رسائل من صديقه محمود.

لم يُعر الرسالةَ أي اهتمام.. نظرَ فقط للرسالة الأخيرة.

(أنا آسف بس مفيش قدامي غير كدا.. سامحني).

خرَج من الرسالة المعتادة من محمود وفتح البروفايل الخاص به.

عدد من المتابعين لا بأس به.. البوست الأخير منذ شهرٍ تجاوزَ الأربعة آلاف لايك وألف شير.. وتعليقات كثيرة، إما منشن لأحد الأصدقاء أو بعض ممن يمارسون شحاتةَ المتابعين، أو بعض من يكتبون عن جمال البوست... ورسائل دائمة من متابعيه... (أين اختفيت)!!

أغلقَ صفحتَه، ونظرَ إلى الورقَة، نظر إليها نظرةَ يأسٍ.. أين ذلك الذي لم يجف الحبر بين يديه.

أمسكَ الورقةَ والقلم..

يحاول أن يكتبَ أي شيء.. يكُتب لنفسه.. ليس لديه صوت، لم يتكلَّم منذ شهر.. صامِت.. الورقَة تتحدَّث بالنيابة عنه.

يبدأ في الكتابة...

بسم الله الرحم...

وقفَ ويديه ترتعش.. يُفكِّر في اسم الله!

أي إله هذا من يرضى بما أنا فيه الآن.. أي إله يجعلني تعيسًا إلى هذا الحد.. أين الدعاء الذي يُغيِّر القدَر.

ينظُر للسقف.. غريبٌ حتى في حُجرته، تركَ القلَم وهو يلعَن نفسه مئات المرَّات.. هاتِفه يرن مجددًا، ينظُر لشاشة الهاتف مذهولًا.. إنها هي!

يرد على الهاتف سريعًا بدون أن ينطِق كلمةً.. صامت لتنطِقَ هيَ:

-عُمر.. أنا عارفة إنك محتاج تشوفني.. وعارفة إني سبَب من الأسباب اللي وصلتَك للي انتَ فيه.. سامحني.

يحاول أن ينطِق، ولكنَّه لا يستطيع.. عينه التي تحجَّرت من الدموع نسيَت البكاء...

أكملَت:

-جايز لو كنا عرفنا بعض في زمن تاني كانت الأمور هتتغير...

قاطعَها هو ولسانه يتحرَّك بصعوبةٍ بالغة:

-وَهم!!

ارتبكَت قليلًا قبل أن ترُد عليه:

-هو إيه دا اللي وَهم؟

صوته يخرج بقوة.. كأنه يُحرِّك صخرةً بلسانه:

-وَهم.. انتي مش موجودة.. وأنا عارف إن الموبايل فاصِل من نص ساعة.. مفيش حاجة بتحصَل.. مفيش حاجة بتحصَل.. مفيش حاجة بتحصَل...

وانقطعَ صوتُ الهاتِف تمامًا.

الأصعَب من أن تكون مصابًا بمرض.. أن تعلَم هذا المرض وتواجهه وأنتَ ضعيف.. إن واجهت مرضَك بدون علاج فستُصبح أكثر ضعفًا.. سينتهي كل ذلك وأنتَ مُستسلِم له ولهواجسك.

يطرُق البابَ وهو يعلَم أنه جُزء من هواجسه فلا يستجيب.

يفتَح الكيس الأخير له.. يضع الأنبوبةَ بين إصبعيه ويحُركهما ببطء وبورقة كرتونٍ صغيرةٍ يجمَعهم ليكون سطرًا أغلى بكثير من سطوره التي ملَّ من كتابتها.. عندما تفقِد الأمل في موهبتِك.. فأنتَ تفقِد الأمل في كل شيء.

يطرُق البابَ مرةً أُخرى بقوةٍ أكبَر.. لا يُبالي.. يضع الأنبوبةَ على أول أنفِه ويبدأ بسحب الهيروين بعُنف لكي يُصمِت هواجس عقله.. أو يتقبَّل أن يستسلِم لها، يفتَح الباب بقُوةٍ وأربعة رجال طوال القامة عريضي الأكتاف يلبسون الزي الرسمي لمستشفى الأمراض العقلية.. يقتربون منه وهو لا يدري بما يحدث.. نظرَ إليهم قليلًا ولم يُبالِ.. أمسكَ الأنبوبة ونظر لمحمود وبدأ يستنشِق الهيروين مرةً أخرى.. نظرَ إليه محمود في غضبٍ وألقى ذلك التراب من الطاولة.. وما إن ألقى التراب إلا وجدَ قبضة عُمر تطيح بوجهه.. أمسَك الثلاثة الآخرون «عمر» بقوةٍ وحاولَ أن يتخلَّص منهم بدون فائدة.. يصرُخ بهم يحاول ضربهم.. لا فائدَة.

سحبَه بقوةٍ خارجَ الغُرفة و»محمود» خلفَه.. «محمود» نظرَ إليه قائلًا:

- والله العظيم بعمِل كل دا علشان خايف عليك.

نظر إليه «عمر» في غضب بركانٍ على وشك الانفجار، وبقوة صوته:

- هقتِلك!

نظرَ إليه «محمود» نظرةَ شفَقة على ما وصلَ إليه صديق عُمره...

بدأ الممرضونَ يسحبونَه بقوةٍ ويُلقى بداخل سيارة ليست كسيارات المستشفى.. سيارةٌ مختلفة وأحد الدكاترة في السيارة ينظُر إليه وبيده حقنة مخدر حتى لا يصيح في السيارة.. أمسكه الممرضون بقوةٍ وفتَح له القميص ليأخُذ الحقنة ويبدأ جسده في الارتخاء.. النور يختفي من عينيه.. الرؤية مشوَّشَة.. يشعُر كأن العالم كله يدور حوله.. آخر ما يسمعه تسجيل أحد المارَّة بجانب السيارة مقطع من أغنية لا يعرف اسمها (ارجعولي بالسلامة ياللي غبتوا كتير.. ارجعولي بالسلامة.. مش راجعين!!) فيُغمِض عينيه مستسلمًا ويدخل في نومٍ عميق...

***

الفصل الثالث

(عند اللقاء الأول: لا تستمع لأي أغنية، ولا تضع أي عطر، وإياكَ أن تُحب المكان كثيرًا، ولا تسأل عن السبب)

نزار قباني

***

انتهَت الامتحانات.. يدخُل «آدم» سريعًا لبروفايل «روان» ويكتُب لها:

- وحشتيني.

ينتظِر لمدة ساعتين حين ترُد عليه:

- وانتَ كمان وحشتني.

- النهاردة آخر يوم.. دلوقتي مِن حقي أتكلِّم معاكي براحتي.

- آه.

- أخيرًا.. أنا مبسوط جدًا وأنا معاكي.

- وأنا كمان.

ظلا يتحدَّثان ما يقارب الثمان ساعات.. لم يشعُر بالوقت معها، لم يشعُر سوى بسعادةٍ لم يعِشها من قبل.

ظلَّ ما يقارب الأسبوعين بهذا الشكل.. وأخيرًا يريد أن يراها.. لم يتحمَّل، منذ ليلة الامتحانات ولا يراها، وها قد مرَّ أسبوعان آخران.. يُخبرها برسالةٍ:

- «روان».. عايز أشوفك.

تردّ عليه بدهشةٍ:

- نعم!! لا مينفعش.

- ليه؟

- مقدرش أقابل ولد، وبالذات لو مفيش حاجة بيننا رسمي.

- أنا بحبك، ودا ممكن تعتبريه أكتر من وعد.. عايز أشوفك علشان خاطري ولو دقيقة واحدة.

قرأَت الرسالةَ ولم ترد عليه.. ظلَّت ما يقارب الـعشر دقائق وهو مُنتظِر... إلى أن أرسلَت:

- طيب.. بس هنروح فين؟

- أي كافيه على البحر بعيد عن بيتنا.

قرأت مرةً أخرى ولم ترد، ظلَّت طويلًا تلك المرة، وهو ينتظر على نارٍ ردَّها.. إلا أنه أبعَد الهاتف عنه وهو يمسح شعره الطويل وينفخ في مللٍ إلى أَن سمع صوت الرسالة ليمسك الهاتف في لهفةٍ:

- نروح ميامي؟!

- يعني موافقة!!

- امممممم.. يعني..

- تمام تمام، ميامي بعد بكرا قشطة؟!

- لا يومين كدا أكون عرفت ألاقي حجَّة أخرج بيها.

- تمام.. يومين ها.. يومين بس!

- حاضِر، يومين بس.

كان يحتضِن الهاتف ويُقبِّله.. سعيد أنه سوف يراها كأنه سيرى الفردوس وما عليها من جمال يومين ليس ببعيد.. لا ينام، يُفكِّر كيف سيذهب ماذا سيرتدي.. يقف أمام المرآة ويُخبر نفسه.. لو كنت نحيفًا قليلًا.. كنتُ سأرتدي أفخَم وأجمل الملابس.. كنتُ سأحاول أن أكون أميرًا لمقابلة مَلكتي.. أصبح غريب الأطوار الفترة الأخيرة.. لاحظَت ذلك أمه الحاجة «زينب»، تنظُر لهُ وهي تُنهي صلاة العشاء:

- مالَك يابني فيك إيه؟

- إيه يا ماما، سلامتِك، أنا كويس.

- لا التصرفات اللي انت فيها دي مش تصرفات واحد كويس.

- فرحان بس علشان خلَّصت امتحانات يا زوزو.

نظرَت له بمَكرٍ:

- علشان خلَّصت بس!

- آه.

- طيِّب أنا مبحبِّش اطإنك تخبي عليا حاجة، بس متقلَقش..

دعَت وقالت:

- يا رب لو خير اجعلها من نصيبه، ولو شر ابعدها عنه نهائي.

- حتى لو شر يا ماما.. أنا راضي بيها.

- لا يا ابني.. لو شر مش هتجيبلك غير التعب، وهتمشي في سكة عمرها ما كانت طريقَك.. اوعى تحب حاجة هتحس مجرَّد إحساس إنها هتكون شر ليك.. هتتعِب روحك على الفاضي.

- ادعي انتي بس يا ماما، وإن شاء الله هتكون أحلى خير يجيلي.

- يا رب يابني.. يا رب.

وأكملت:

- أمال فين صحابك، وفين «مروان»؟

أخبرَها وهو ينظُر للمرآة:

- معرفش عنهم حاجة، ومش عايز أعرف.

- ليه بس كدا؟

- يا ماما دول عيال تافهة، كل ما بقعُد معاهم يقلوا مني، «مروان» الكويس اللي فيهم.. بس عايز أخلي العلاقة سطحيَّة معاهم.. لحد ما تنقطع لوحدها.

ظلَّت صامتةً الحاجة «زينب» لا ترد عليه.. لاحظَت أن ابنها قد تغيَّر في الفترة الأخيرة.. ولكن مَن تلك الفتاة التي تفعَل بهِ كل هذا؟!!

.....

يوم المقابلة

الساعة الثالثة عصرًا.. يجلِس في أحد الكافيهات الفخمة أمام البحر.. ينتظِر «روان» بفارغ الصبر.. ينظُر إلى ساعته التي لا تتحرَّك.. لا يفعَل شيئا سوى

الانتظار، مستعد أن ينتظِر مائة عامٍ دونَ أن يمَل.

ينظُر إلى الشاطئ ويتخيَّل كيف سيكون لقاءهما.. بما سيتحدَّث! مازال لا يُجيد موهبةَ الحديث في الحب.. وقفَ الجرسون بجوارِه.. وبصوتٍ هادئٍ:

- حضرتَك تطلُب إيه؟

كان غارقًا في التفكير في صورتها التي لم تذهَب من خياله في منظر البحر الذي يزيد من نشوته إليها.. لذلك لم يسمعه.

حاول الجرسون أن يتنحنَح مرةً أخرى وبصوتٍ أعلى تلك المرة:

- تطلُب إيه يا فندم؟

نظر إليه «آدم» مفزوعًا.. كان يقف الجرسون بجواره ما يقارب الخمس دقائق ولم يشعُر به.. قال «آدم»:

- ممكن بس شوية كمان علشان في حد مستنيه؟

رحلَ الجرسون و»آدم» ينظُر إلى الباب مُنتظرًا دخولها.

مرَّت نصف ساعةٍ ولم تأت بعد.. نصف ساعةٍ مرت كزمنٍ كامل.. نصف ساعةٍ كادَت أن تُشتِّت تفكيرَه...

لماذا لم تأت إلى الآن.. ماذا يحدُث! يحاول الاتصال بها ولكن هاتفها مغلق..

زفرَ بعُنفٍ.. يا للكارثَة!

عاد مرةً أُخرى ينظُر إلى الشاطئ وصوتٌ دافئ وناعم بجواره:

- أتأخَّرت؟

ينظُر في لهفةٍ لها ويقف من شدَّة دهشته بها، ينظر للأميرة، للملكة، لتلكَ التي تفنَّنَ الخالقُ في خلقها، ينظر لجمال شعرها البني المموج الطويل وطلاء شفتيها الوردي، جنةٌ خلقَها اللهُ بين شفتيها، وفستانها الأصفَر الرائع وعينيها.. تلك العالم الثالث والرابع.. تلك البعيدة تمامًا عن الخيال والأحلام.. وأشد بعدًا عنه وعن واقِعه...

يُخبرها بصوتٍ مُتقطِّع:

- لا لا متأخرتيش.

جلسَت تضحَك وهو غارق بين ضحكتها.. تلك الجميلة التي يُحاول أن يفعَل كل شيء من أجلها.

-انتَ هنا بقالَك كتير؟

ظلَّ ينظُر إلى عينيها وهو غارق بها.

- تلاتة بالظبط كنت موجود هنا.

- آسفة إني اتأخَّرت، بس انت عارف المواصلات صعبة علشان آجي، وبعدين مينفعش أتأخَّر علشان ماما.

- إني شوفتك بس النهاردة دا كان كفاية عليا جدًا .

يأتي الجرسون مرةً أُخرى متطفِّلًا، وبابتسامةٍ صفراء مستفزَّة تقطع الحديث بينهما:

- تشربوا إيه؟

ينظر إليه «آدم» نظرةً بائسةً.. وينظُر مرةً أخرى لـ«روان»:

- تاكلي؟

قالَت وهي تُخرج الهاتف من حقيبتها:

- لا أنا أكلت في البيت.. ممكن قهوة؟

ينظُر «آدم» مرةً أخرى للجرسون:

-عايز اتنين اسبيرسو.

يكتُب الطلبات ويرحل، وهو ينظُر إلى عينيها.. ينظُر إلى ذلك السحر الذي يُحرِّكه بدون إرادته...

- هو أكيد كل اللي بيحصل دا حقيقي.. يعني كُنت منتظِر كدا من تلات سنين وأنا بتمنى اليوم دا.. بحلَم بيه يوميًا.. بحلَم إن هييجي يوم أقعد قدام سندريلا اللي مفارقتش خيالي لحظة.. كل ما بكبَر كانت بتكبَر في دماغي وخيالي معايا.

احمرَّت وجنتا «روان» وهي تنظُر للأرض بخجل، مدَّ يدَه إلى يديها في بطء وأمسكَ بهما، شعر كأنَّه اليوم هو سيد هذا الكون.. أصبحَ كاملًا معها وناقصًا كثيرًا إن رحلَت.. لا حياة له بدونها.. لا يستطيع أن يحيا إلا معها فقَط.. هي من ترفَعه إلى السماء السابعة وتطوف به الكون ومَن فيه.. كانت يديها رقيقه وناعمة.. أمسكَ يديها وكأنما أمسكَ ملاكًا من نورٍ بين يديه.. أمسكَ يديها وكأنه طفل تائه وبعد عذابٍ وجد أمه!

وضعَت القهوةَ وهو مازال ينظُر إلى وجهها إلى الورد الذي خلَقه الله في وجنتيها.. هناك ورود هي أنواع خاصة.. أنواع لا يمكن أن تزرع في الأرض فتزرع في وجهها، وقدرات تُحدِّد متى يظهر هذا الورد، ومتي يذبل تمامًا...

ظلَّ ناظرًا إلى عينيها ولا يجد ما يقوله.. ربما اكتفى بالنظَر إليها فقط.. الحديث السخيف لا فائدة منه.. اترُك روحَك بين يديها واستمتِع.

بعد صمتٍ طويلٍ قاطعَته «روان»:

- هتفضَل ساكِت كدا كتير؟ قول أي حاجة.

بدأ يتلعثَم في الكلام، وأفاقَ من شروده والعالم الذي يتمنى أن يفنى فيه:

- مش لاقي كلام أقوله.. مش بعرف أتكلِّم.. أنا.. أنا يمكن مش بعرف أعمل أي حاجة في حياتي.. بس بعرَف أحبِّك.. بس!

بدأت تضحَك و»آدم» مازال تائها بها.. «روان» أصبحَت كيانًا كاملًا له.. وطنا لا يُريد أن ينتمي لغيره.. ولا يتمنى مُغادرتَه.

أتت القهوة، وبدآ يرتشِفان منها سويًا، وبدأَت المزيكا تغزو المكان برقتها وجمالها...

القهوة والمزيكا والبحر وحبيبتك... ماذا تُريد أكثر من ذلك! ليس حلما! أنا متأكِّد، أنا أجلس أمامها الآن وأراها وأمسِك يديها.. ليس حلما! و إن كان حلما، لا أريد أن أستيقِظ.. ظلَّا يتحدثان، هي تحدثَت مرةً أخرى عن عائلتها وأصدقائها الكثير والمواقف الطريفة في اللجان والامتحانات...

وهو صامت يستمتِع بكل ما فيها من حواس.. وضحكاتها وصوتها وكل شيء...

مرَّت ساعتان ولم يشُعر بهما.. ثم وقفَت وقالَت له:

- «آدم» أنا اتأخَّرت ولازم أمشي.

- طلب «آدم» الشيك وهو مُتردِّد لا يريد أن يرحل.. يريد أن يظلَّ بجوارها لفترةٍ أطوَل.

أتى الجرسون ومعه الشيك.. أخذ «آدم» منه الشيك ووضع المال بداخله وأخذَ يدها وتحركا سويًا، ونظر إلى عينيها البُنيّة، كأنَّها خُلقَت من نورٍ لم يُخلَق منه الملائكة!

الفصل الرابع

(يحدُث أن يتم الإشفاق عليكَ لضعفك.. تُصبِح ضعيفًا للغاية.. ضعيفًا لدرجة القسوَة.. ضعيفًا بأن تمتلِك غضبَ بركان.. ولكن بالنهاية ضعيف)

***

شهرٌ كامل مع «روان» أشبه بشهر في الفردوس.. ثلاثون يوما وروحه أصبحت بداخلها.. ثلاثون يوما وكل يومٍ فيهم بقصَّةٍ مُختلفة.. بإحساسٍ مُختلف.. ثلاثون يوما مرُّوا كثلاثين دقيقة لا نعلم ما يحدُث وأنتَ مع شخصٍ تُحبه كيف يمر الوقت سريعًا هكذا! و لماذا يمر من الأساس.. لمَ لا يتوقَّف الزمن! لمَ لا يحترم وجودنا ومشاعرنا؟!

ظهرَت نتيجة الثانوية العامة بالأمس.. انتهى الأمر بأن «آدم» إلى كلية التجارة بمجموع بسيط ٢٨ ٪ وهي إلى فنون جميلة بنظام الاختبارات رغم ضعف مجموعها ٦٦ ٪

جلسَ كلّ منهما يُخطِّط لمستقبله مع الآخر.. فقد خرجا من جحيم الثانوية.. هي ليست جحيما تمامًا.. تمنى «آدم» لو أن يبقى عمره بأكمله في المرحلة الثانوية مع «روان».. طالما لم يفترقا أبدًا...

يرن هاتف «روان» ومكالمة من «آدم».. تنظُر إلى الشاشة بسعادةٍ، وترد عليه مسرعةً:

- وحشتيني.. قالها «آدم» بصوتٍ عالٍ وهو في الشارع.. صوت كادت أن تسمعه من نافذة غرفتها.

- انتَ فين؟ !

قالتها في تعجُّبٍ عندما سمعَت صدى الصوت.

- أنا تحت بيتك.

- استنى هخرجلك.

وذهبَت بخطواتٍ ثابتةٍ وهادئة حتى لا تشعُر أمها بأي شيء..

خرجَت إلى الشُرفة وهي تنظُر إليه وهو يجلِس إلى السور أمام بيتهم ويفرد ذراعيه لها بحركات طفولية...

تغيَّرت نظراتها وأصبحت جادةً أكثر من اللازم.

- انتَ طلِعت فوق ازاي!؟

- عادي نطّيت.

- انتَ مش طبيعي.. مجنون!

- وفيها إيه لما أكون مجنون وببسطك كدا.. يا رب أفضَل مجنونك على طول...

وصمتَ كلُّ منهما قليلًا وأكمل «آدم»:

- «روان»..

- إيه؟

- بعشقِك.

ظهرَت على وجهها علامات الخجَل وهي تنظُر إليه ووجنتيها المحمرَّة:

-و أنا كمان.

نظرَ إليها وأكمَل وهو يُحاول الوقوف على السور.

- ممكِن بقى طلَب مُهم جدًا ليه؟

- إيييه.. بقلَق من طلباتَك.

- عايز بوسة.

تغيَّرَت ملامح وجهها إلى الغضَب والتعجُّب وقالَت:

-نعم يا روح أمك؟!

بدأ هو بالانسحاب بهدوء:

-إيه إيه بهزَّر.. بس كُنت عايز أزوِّد جناني شوية.. وبعدين دي مجرد بوسة كدا في الهوا.

لم ترد عليه، ظلَّت تنظُر إليه فقَط بوجهها شبه الغاضب. أكملَ هو:

-أنا آسف.. مكنتش أعرف إني هضايقك يعني بكلمة زي دي.. أنا آسف يا «روان».. مبيهونش عليا حتى تفكري في الزعل وأنا معاكي أو حتى مش معاكي، أنا بس كن...

قاطعته «روان» فنظرَ لها والهاتف قريب من شفتيها وهو يسمَع صوت قُبلتها..

وما إن سمعَها حتى احمرَّت وجنتيه ونظر إليها في فرحةٍ عارمة لم يشعُر بها إلا وهو معها فقط.. أنا في الجنة وكاذب من يقول غير ذلك.. لم يشعُر إلا بقدميه تفلت مع على السور لتنظُر إليه «روان» في فزعٍ حقيقي، ويفلت الهاتف من يدها ويسقِط على الأرض... وتضع يدها على فمها وهو يسقط إلى الجهة الأخرى حيثُ لا تستطيع أن تراه، يسقط من ارتفاع خمسة أمتار على قدميه ويسقط معه قلب «روان»...

كانت كاذِبة مُحترفة..!

مر أسبوعان وهو يجلِس على سريرِه ويضع الجِبس في قدميه، لا يتحرَّك إلى أي مكان.. اتصلَت به «روان» أول أربعة أيام فقط لتطمئن عليه.. أصبح «آدم» وحيدًا تمامًا لأنه لا يملك إلا هي.. في اليوم الرابع أثناء محادثتهما شعر بأن هناك شيئا تغيَّرَ في كلامها.. لم تعُد كما كانت معه.. تغيَّرَت هي بكلامها، نبرة صوتها، الحديث الكثير.. انقلبَ كل هذا.. حاولَ كثيرًا أن يعلمَ ما الخطأ من هذا.. عقله كاد يشت من التفكير.. يصيحُ مرةً.. يصمُت مرةً.. يتحدَّث بنبرةٍ سريعة وأخرى باكية.. ولا يعلم شيئا.. لمَ أخبرَته أن نعود أصدقاء؟ لمَ قالت له أنها لا تشعُر بالراحة معه؟ لم أخبرَته بحبها من الأساس ما دامت تكذِب عليه؟! بعد الأربعة أيام لم تُحدِّثه إطلاقًا.. يرن عليها، هاتفها مشغولا أو مغلقا... يحاول أن يُحدِّثها على الفيس بوك.. تفاجأ بأنها ألغت طلب الصداقة وقامت بحظرِه من الشات!

ينظُر إلى كل شيء حوله بذهولٍ.. ماذا حدَث، مَنْ أخطأ؟ إن كنتُ أنا فبماذا أخطأت.. أخرجَ اللاب توب وقام بدخول أحد المواقع التي تقوم بعمل الإيميلات المزيفة للدخول إلى الفيس بوك بحسابٍ آخر.. يدخُل صفحتها بسرعة ويُخبرها في رسالة:

(«روان» حصل إيه.. أنا عملت إيه؟ طب لو حصَل مني حاجة ضايقتك فأنا آسف.. والله العظيم ما أقصد.. انتي عارفة أنا بحبك قد إيه وأكيد أي شيء عملتُه غلَط كان من غير قصد.. طب ماتسيبينيش كدا وقوليلي أنا غلطت في إيه وأوعدِك مش هكرَّرها.. «روان» أرجوكي ماتسيبينيش.. مش هعرف أعيش من غيرِك.. أنا ماعنديش أي حد غيرِك انتي.. مش عايز أبقى لوحدي)

بعدَها بدقائق قبلَت «روان» رسالتَه وردَّت عليه:

«آدم» أنا آسفة بس أنا بحب حد تاني.. وانت أصغر مني بسنة ومهما حصَل

مش هعرف أحب حد أصغَر مني.. وهيقروا فاتحتي كمان أسبوع وهو مُدرِّب تنِس وشاب كويس جدًا وجاهز... ووالدي موافق عليه جدًا وجاهز من كل حاجة.. أنا آسفة ومتحاوِلش تكلِّمني تاني علشان ماسببلكش مشاكل.

قرأ «آدم» تلك الرسالةَ وهو غير مُصدِّق.. لم يشعُر بنفسه غير أنه يبكي كالأطفال.. بهذه البساطة تترُكني! لماذا.. أخبرتُها أنه مجرَّد عام واحد ستنتظرني فيه، وسأتقدَّم لها بشكل رسمي.. لمَ تركَتني وهي تعلم أني وحيد ولا أملك غيرها.. من هذا الذي سيستطيع أن يحبها مثلي؟!! وأكملَت «روان»: شكرًا على الوقت الجميل اللي قضيتُه معاك.. انت إنسان كويس.. وإن شاء الله تلاقي اللي تحبك.. انساني يا «آدم».. سلام.

قالَت السطر الأخير وكأنها تُمرِّر سكينًا باردا حول رقبته.. يُعذّب قبل أن يموت!

كتب «آدم» بسرعةٍ على اللاب ويديه ترتعِش وعينيه تبكي.. يُحاول أن يتمالَك نفسه ويفشَل:

- «روان».. أنا موافق إنك ترتبطي.. بس خليكي جنبي.. أنا محتاجِك تكوني جنبي.. كأصحاب زي ما قولتي.. بس ماتمشيش.. افضلي جنبي ولو لفترة قصيرة..

لم تُرسَل الرسالة.. بلوك!!

رمي اللاب الخاص به على الأرض وظلَّ يبكي كالأطفال.. يحاول أن يقِف على قدميه فيقَع.. حاولَ أن يذهَب لها، لا حياةَ له من دونها، لا حياة له من الأساس! دخلَت الحاجة «زينب» لتجِده على الأرض مرميًّا، صرخت:

-ابني!

سمعَت صوت بكائه وهو يضع يديه على وجهه ليمنع تلك الدموع أو لكي لا تراها... أخبرَها وهو مازال يضع يديه على وجهه:

-ماما أنا عايز أنزِل، ساعديني.

قالَها وكل حرفٍ من كل كلمة تمتزج بدموع الحسرة والقهر.

جلسَت بجواره وهي تُحاول تهدئته:

- فيك إيه؟! وتنزل ازاي! الدكتور قال محتاج شهر علشان تشِيل الجبس.. لو حرَّكَت رجلَك كده هتتكسر أكتر.. اهدا يا حبيبي وقولي بس مالك.

بدأ صوت بكائه يهدأ.. وبعد بضع دقائق صمت.. تنظُر إليه أمه في قلقٍ.. وجدته هادئا تمامًا وكأنما يحدُث شيء، وينزل يديه وعينه في شدة احمرارها.. ويغمضها ليدخُل في نومٍ عميقٍ، وهي بصرخةٍ أخرى:

-«آدم»!

المكان مظلمٌ للغاية.. نور طفيف يُطل على غرفة لا يعلم مساحتها.. ورقة مُلقاة على الأرض.. ينحني ليأخذ الورقة.. ويقترب من النور ليقرأها.. رسالة قد لا تكتب..

(منذ أن خُلقتَ وأنت تعاني.. لا أحد يعلم ما قد يُصيبكَ غدًا.. ولكن الوقت لم يعد يسمَح لأن تظل هكذا.. أنا أعرفك تمامًا.. أكثر من نفسك.. رغم كل هذا مازلتَ غريبًا عنا.. ماذا قد يحدُث لك أكثر من هذا.. مرَّ عامان وأنت لا تلحق شيئًا)

-عُمر!

صوتٌ ينادي من بعيد.. يعلم هذا الصوت جيدًا.. صوت كان سببًا كافيًا لما يصل إليه الآن.

-عمر.. فوق.

ينظر إلى كل شيء حوله.. ربما لا تستيقظ.. ربما ستظل في غفلتك إلى يوم ينتهي فيه حلمك وواقعك معًا!

-لو فاكر إني ممكن أرجع يبقى بتحلَم.

صوتٌ بجوار أذنيه.. صوتها الذي طالما لعنَه في كل وقت.

- هاهاهاها.. كاتب إيه! انت صدَّقت نفسك!!

يضع يديه على أذنيه حتى لا يسمع ذلك الصوت نهائيًا.. لا فائدة.. أنت لا تعلم شيئا.. ستظل هكذا.. لا فائدة لك.. أحمق.. مجوسي.. فاشل.. طفل...

-كفاية..!!

قالَها عُمر وهو يصرُخ فيهم بأن يرحلوا.

صوتٌ آخر أكثر دفئًا ونعومةً.. صوت لو طال لبقي على قيد الحياة.. صوت منذ أن رحل وهو لا يفرق كثيرًا عن الأموات.. صوت أعاد له الهدوء مرة أخرى.

- اعمل حاجة تثبِت إنك بتحبني.

- بحبِّك يا أمي..

قالها بضعف، بخذل قالها وجسده ينتفِض.. قالها وهو يفتح عينيه ببطء ويرى تلك الممرضة وهي تُعلِّق له المحاليل.

ينظُر لها بجزع.. ويقِف مُسرعًا ليرى أين هو الآن.. ينظُر إلى تلك الحجرة والسرير والمحلول المعلَّق بيديه.. ينظُر إلى الممرضة نظرةَ غضبٍ، كانت قصيرة القامة، ممتلئة الجسد، تضع بعض المكياج على وجهها والكحل، عيون بنّية وشفتان ضخمتان قليلًا، والطرحة التي يظهر منها نصف شعرها... تخرُج مسرعةً وتنادي الطبيب عصام بأن يأتي سريعًا.. يخلع تلك الملابس والمحلول

من يديه، ويأتي عليه اثنان من المرضين الأقوياء ويُكتِّفونه من ذراعيه جيدًا، ويتقدَّم دكتور عصام بخطواتٍ ثابتة، كان طويل القامة ويمتلك عيونًا خضراء وشعرًا أصفر، قمحي اللون ووجهه طويل ونظارته متخذة الشكل المربع، يمتلك جسدًا رياضيًا، يلبس المعطف الطبي وتحته قميص بني وبنطلون جينز أزرق... ويتقدَّم إليه ويُخبره:

-اهدا شوية.. بالمنظَر دا مش هنعرف نتكلِّم.

كانت عينا «عمر» تطلق شرارًا وكأن على وجهه بركان على وشك الانفجار!

-إيه اللي خلاكم تجيبوني هنا!

سحَب «دكتور عصام» المقعد والطاولةَ الصغيرة ووضعها أمامه وجلس:

-صديق مقرَّب ليك قال إنك مدمن.. فجابَك هنا يعالجك.. متقلقش كله في سرِّية تامة.

مازال «عمر» في حالة غضب:

-أنا مطلبتش من حد.. احبسوني ومش عايز أتعالج.

قاطعَه «دكتور عصام» وهو ينظر إليه في تحدٍّ:

-الأمر مش بمزاجَك.. انت هِنا كمَريض، ومش هتخرُج إلا وانت متعالج.

حاول «عمر» أن يهدأ قليلًا لأنه يعلم ألا فائدةَ مما يحدُث وقال:

- أنا مش مُدمن هيروين.. أنا مُدمن تفكير.. تفكير في اللي حصل واللي بيحصَل..

وصمت قليلًا وأكمل:

- واللي هيحصل!

لم يُبالِ «دكتور عصام» بما قاله «عمر»:

-أيا كان.. انت هنا هتتعالج من أي شيء انت بتدمنه.. فترة علاج لشخص زيك مش هتقِل عن ست شهور.. وإن شاء الله ننجح في علاجك.

وقف الدكتور «عصام» واستدار وخرج ومعه الممرضان و بقي «عمر» في الغرفة غير مستوعب لما قد حدث.. يظن أنها إحدى هواجسه التي لطالما هرب منها.. ولكن يبدو أن هواجسه ستطارده كثيرًا.. لا يملك أي شيء للهروب وسيظل هنا، إلى أن يعلن موته!

***

الفصل الخامس

(اكتئابٌ ثم عُزلة.. ثم كوارث لا تدرك كيف فعلتَها.. ولكنها تمَّت)

***

تقِف الحاجة «زينب» بجوار الدكتور وهو يفحص «آدم».. وتسأله:

-خير يا دكتور طمني.. دا ابني الحيلة مليش غيره في الدنيا.

يُلملم الدكتور أغراضه في الشنطة الخاصة به ويخبرها:

-ابنك ضغطه علي فجأة.. ممكن يكون شاف منظَر مش كويس أو سمع كلام ضايقه.

وبقلقٍ بانَ على صوت الحجه «زينب»:

-بس ابني كان لوحده في الأوضة يا دكتور.

وقفَ الدكتور على باب الشقة، وأعطاها الروشتة وأخبرها بأنه يجب أن يستمر على هذا العلاج الفترة المقبلة، وسيكون بخيرٍ إن شاء الله.

فتحت له الباب للرحيل، ثم ذهبَت سريعًا لابنها الذي أفاق فور خروج الدكتور من الغرفة.

الحاجه «زينب» تقترِب منه وتضع يديها على رأسه تَمسح شعره...

-«آدم» إيه اللي حصلَّك؟

ينظر اليها «آدم» وهو لا يستوعِب ماذا يحدُث.. يصمت ولا يستطيع الرد

عليها.. أصبح لسانه ثقيلا للغاية.. من الصعب أن يُخرج كلمة.. وما فائدة الكلام.. فقد قِيل ولم تهتَم!

بعد مُحايلةٍ طويلةٍ من الحاجة «زينب»... تخبره بصوتٍ هادئ:

- «آدم».. أنا مليش غيرك، ولو لفِّيت الدنيا دي كلها عمرك ما هتلاقي حد يحبك زيي.. وبموت والله لما أشوفك مش كويس.. قولي فيك إيه؟

كان صامتًا ويحبِس دموعه في عينيه.. لا يريد أن يبكي أمام أمه.. لا يريد أن يحيا بعد الآن.. يدعِي في سرّه أن يأخذه الله...

وأكملت أمُّه وهي تضمه لصدرها في حنانٍ:

-أبوك قبل ما يموت يا حبيبي سابلنا فلوس كتير جدًا في البنك.. بنعيش على فوايدهم، شاور انت بس على أي بنت وهتلاقيها عندك، أي واحدة يا حبيبي انت بتحبها مش هنتأخَّر أبدًا، مع إنك لسه طالب وداخل كلية.. بس إيه يعني، ما الأرياف بيتجوزوا وبيخطبوا وهما صغيرين.

كان صامتًا لسذاجتها في الحديث.. وهي تُكمل:

- هي صاحبتك بتاعت الدرس اللي غيّرتلك حياتك كدا فين؟

وما إن سمع تلك الجملة حتى أعلن الاستسلام لتلك الشلالات من الدموع.. أزاحها بذراعيه برفقٍ ووضع يديه على وجهه مرة أخرى، وتحدَّث بعد صمتٍ طويل:

-ماما لو سمحتي اطلعي برا.

حاولَت أن تمسكه وتربت عليه... ولكن تلكَ المرَّةَ نهرَها بقوةٍ وبصوته العالي:

-لو سمحتي!!

هي لأول مرةٍ ترى ابنها بهذه الحالة، فتخرُج سريعًا من غرفته.. وتترك قلبَها يُعذَّب بين يديه، كما ترك قلبه يعذب بين يديها.

صمتَ تمامًا.. يسرَح في ذكرياته معها.. في كل وعدٍ اتفقا عليه.. يُحاول الهروب منها فينام، فيحلم بها، يستيقِظ وهي في أول تفكيره، يظل صامتًا شاردًا فيها وصورتها.. يفتَح اللاب توب الخاص به و يدخُل صفحتها الشخصية باستمرار، يراها تضَع بعض البوستات الرومانسية لأغاني أم كلثوم وعمرو دياب وبعض السطور من الروايات الرومانسية... تضع صورتها الشخصية مكتوب عليها فاتحتي كمان أسبوع! هي سعيدة بحياتها الآن!

كيفَ نسيَتني بهذه البساطة؟! كيف تتركني هكذا.. كنتُ أشد المؤمنين بك.. مؤمنٌ بكافرة.

ظلَّ أسبوع على هذا الحال تحاول الحاجة «زينب» أن تواسيه ولا فائدة.. يظلّ صامتا طوال اليوم، يدخُل بروفايلها باستمرار... يسرح في ذكرياته معها، ينام تكون بجواره، يستيقِظ تكون أول ما يشغَل تفكيره، أسبوع يلي أسبوع يلي أسبوع... يدخل البروفايل الخاص بها ويجدها تضع صورتها مع خطيبها الجديد (أحمد عبد الواحد) مدرب تنس... لم يُصدِّق ما يراه، يراها تتشبَّث به جيدًا، فرحة كبيرة في عينيها.. سعيدة وهي بجواره.. وهوَ يبكي، يبكي فقط!

أغلقَ اللاب، وعاد للبكاء إلى أن غفلت عيناه.

يرن هاتفه بعد مرور نصف ساعة تقريبًا.. رقم غريب، تعمَّدَ ألا يرد، يرن مرةً أخرى، ويمسك الهاتف بدون أن ينطِق كلمة، صوت فتاة، لا لا ليس «روان».. صوتٌ آخر لم يسمعه قط، يُخبره (الطريق الغلَط اللي بتكون ماشي فيه.. ممكن تلاقي فيه حياة) وأغلق الهاتف، لم يبالِ بما سمع، ورمى الهاتفَ، فتح اللاب مجددًا ليدخل إلى صفحتها الشخصية، ولكنه يتفاجأ برسالةٍ منها:

- «عمر».. وحشتِني، استناني، هرجع!

كانت صدمةً بالنسبة له، يشعُر بالسعادة التي جعلَته يستيقِظ من النوم باكيًا...

مرّتَ ثلاثة أشهر...

كل شيء أصبحَ باللون الأسود، في غرفةٍ يشتد فيها الظلام، لا مفر من وحدتك، لن تخرُج من هنا وأنتَ كما أنت، صمتٌ يقتُل كل يوم بداخلك جزءا، الوقت لا ينسي، ملامح وجهك التي تحوَّلت إلى التعاسة، عيناك الحمراء طول الوقت التي أعلنَت أخيرًا أنه لا يوجد دموع أخرى.. الأسوَد الداكن تحت عينيك، شفتيك المتشقِّقة، يديك التي ترتجِف طيلة الوقت، لسانك الثقيل، يخرُج منكَ الكلام مُقسَّما، فلا يفهم الآخرون شيئا.. ثانية واحدة.. لم أتحدَّث مع الآخرين أساسًا، أنا هنا لأنه لا يوجد مكان لي في هذا العالم غير هنا.. غُرفتي، وستكون مقبرَتي في المستقبل.

يفتَح صفحَته الشخصية ويكتُب:

(ربما نتيجة الأحلام التي خُذلنا فيها.. هي الكوابيس التي نعيشها الآن).

ضغطَ زر النشر، وأغلقَ اللاب وحاول أن ينام، لا فائدة، يخشى أن يجِدها في الحلم، يخشى أن يراها حتى لو بخياله، هي لم تُفارقه يومًا منذ أن رحلَت.

يقال إن الحب الأول له سلطة خاصة على عقلِك قبل قلبك.. ولكن ماذا إن كان حبك الأول هو حبك الحقيقي والأكبر!؟

مرَّ شهرٌ آخر وهو على تلك الحالة، صامت، يكتب بعض الكلمات التي لا يفهمها البعض، هو يفهمها فقط.

الاكتئاب يقتُل بك كل شيء جميل، حاول ألا تستسلِم له، أو حاول أن تخرج الجمال منه!

أحاديث كثيرة تدور داخل عقلك.. ألف سيناريو وتخيلات تتمنى أن تحدُث، ذكريات لعينة لا تستطيع التخلُّص منها، تحاول أن تتذكَّر كيف كانت حياتك قبلها، فتزداد فشلًا، لِمَ حدث كل هذا؟ لِمَ رحلَت؟ من أخطأ؟ لِمَ لَم تنتظِر؟!

تساؤلات تجعل عقله يتشتَّت، ليس بيده أي حيلة، يُغمض عينيه مُجدَّدًا ويتمنى من الله أن يُعجِّل نهايته.

حالةٌ من الفوضى تُقصِي ما تبقى له من آمال.. يجلس وحيدًا في غُرفة مُغلَقَة، يدخلها دائما نور الشمس، لَم يُحب الشمس يومًا، كان دائما يجد نفسه في سكون الليل، يُرافق القمَر، يُحدِّث ورقَته، ويهرب إلى الهيروين والحشيش! وضع جديد يزيد غضبَه، أنا لستُ في حاجةٍ لكل هذا، لم أكن أتمنى يومًا أن أصِل لهذا، ولكني لم أشكُ لأحد، سعيدٌ بما أمرّ به، وكل عواقبه تخُصّني وحدي.. يُخبر نفسَه وهو جالس على سريره ويشبك أصابِع يديه ويُحرِّكهم سريعًا...

مرَّت ثلاث ليالٍ..

وجهه أصبحَ أصفر اللون، جسده يهبِط بالعرق، وبارد للغاية وكأنه في القطب الجنوبي.. رعشةٌ تسير في جسده بأكمله، لسانه الثقيل، عيناه التائهتان، والسواد الداكن الذي يُحيط بهما، ربما ازدادت اليوم، أعراض انسحاب! يُحاول أن يُقاوِم بمقدار ما يستطيع، ليفشَل ويخرج صوتٌ عال: (الحقووووووني! بموت!).

اقتربَ من الممرضين ودكتور «عصام» يقِف خلفَهم يُخبرهم بأن يعطوه تلك الجرعة الصغيرة، جرعة كافية لعمل نصف سطر.

يقترِب منه الممرضون وهو في حالة هياجٍ شديدة.. كأنه ذئب في ليلةٍ اكتمَل فيها القمر.

يُرمى له الكيس الصغير لينقضَّ عليه سريعًا، ويُخرجه على الأرض، وينظر لهم نظرة حرص مما قد يفعله ولكنه لا يبالي، فتحَ الكيس الصغير وأخرجَ منه

الهيروين ووضع إصبعه ليسد فتحة أنفِه اليمنى ويستنشق الجرعة بأكملها في نفسٍ واحد، جرعة صغيرة كان في أشد الحاجة لها.. جسده يرفُض كل شيءٍ إلا جرعَته المفضلة.. بدأ الجسم في تقبّل الهيروين.. ليعود للارتخاء مرةً أخرى.. العالم كله بفوضاه وضجيجه يغيب عن عينيه.. تغِيب ذكرياته ونكسته.. يغيب كل شيء، يختفي تمامًا، كما يتمنى أن يختفي هو أيضًا.

راقبَ «دكتور عصام» مشهد المدمن الذي قد يبيع كل شيء من أجل جُرعته، ربما تكرَّر هذا المشهد كثيرًا أمام عينيه.. ولكن يشعُر أن هناك شيئا مُختلفا، يقلَق من ذلك المريض منذ أن دخل المصحَّة، يشعُر بأنه خطر هنا، خطر عليه.

أغمضَ «عمر» عينيه ونام في وضعية الجنين على الأرض.. وصمتَ العالم بأكمله.

تحرَّك الدكتور «عصام» إلى غرفة الأطباء ليجِد تلك الفتاة المشاغبة التي يجدها دائما في الغرفة.. تُريد أن تبدأ أول تجربةٍ لها لتكون رسالتها في حفل تخرجها.

كانت تجلس وهي تُقلِّب ببعض أوراق الممرضين والحالات الخطرة الموجودة من وسواسٍ وانفصامٍ وإدمان وشخص قتل زوجَته بعد أن اغتصبها ورمى طفلته من الدور الثامن... كل تلك الحالات التي تشعل حماسها، كانت تحب علم النفس من صغرها، وهي الآن قريبة من التخرّج لتصبح طبيبة نفسية أو ما يسمونها في مصر (دكتورة مجانين).

لاحظ الدكتور «عصام» انشغالها التام في الأوراق، فوقفَ بجوارها ومازالت لا تُلاحظ وجوده، فتنحنَح بصوتٍ هادئ:

-دكتورة وسام؟!

نظرَت إليه ووقفَت بفزعٍ وقلقٍ مع قليلٍ من الارتباك:

-دكتور «عصام»! حضرتَك هنا من امتى؟

تعجب دكتور «عصام» من وقفتها وارتباكها..

- من حوالي عشر دقايق.

- سوري يا دكتور مخدتش بالي من حضرتك.

- اتفضَّلي اقعدي يا دكتورة.

جلسَت «وسام» وهو يسحَب أحد المقاعِد ليجلس بجوارها:

- اختارتي الحالَة اللي هتشتغلي معاها ولا لسه؟

قالَها دكتور «عصام» وهو يُقلِّب معها في الأوراق.

- لا والله يا دكتور لسه.. كلها حالات تقليدية.. وأنا عايزة شخص شبه مُدمَّر، مدمن بقى مجنون، قاتِل، كل شخص من الأوراق اللي في إيديا اللي أخد جُرعة زيادة، واللي اتكهرَب واللي خد حبَّاية محسِّش بنفسه فقتل... عايزة شخص غامض، شخص حكايته مش مفهومة، شخص مُقتنع تمامًا إنه ميِّت، وإنه بس مجرد كائن بيتحرك مستني موته!

- في أربع حالات جديدة على مكتبي، تقدري تقلِّبي في الورق وتشوفي، يمكن تلاقي الغامض بتاعِك.

قالها وهو يستدير ليخرُج من الغُرفة، وفجأةً رفع إصبع السبابة وأكمل:

- آه قبل ما أنسى، في حالة اسمه «عمر عبد الحميد» سيبي الملف بتاعه شوية لأنه لسه في المرحلة الأولى من الإدمان وبنخفِّف الجرعة معاه، ومعتقدش إن دا الشخص الغامِض اللي هيلفِت انتباهك، خلي بالك من نفسك يا دكتورة، سلام.

- آه طبعًا يا دكتور.. سلام!

وقفَت واقتربَت من الملفات التي توجد على مكتب الدكتور «عصام» لتجد أربعة ملفات:

الأول:

«زكي محمود الشاذلي»

٤٠ سنة.

مُتزوِّج ومعه ثلاثة أطفال.

مدرس إعدادي، شخص غير مُتزن نفسيًا، قتلَ أحد الطلاب في الفصل، أبلَغت عنه ناظرة المدرسة السيدة/ نهال عبد السلام، وقامت الشرطة بإحضاره يوم ٢٠١٥/٣/٢١ وتم تحويله إلى مصحَّة العباسية لمراجعة حالته مع أطباء المصحة.

الغرفة رقم ٤١

رقم الهاتف الخاص به ٠١٠******

أخرجَت «وسام» هاتفها لتُسجِّل الرقم الخاص به، وأغلقت الملف وسحبت الآخر.

«هالة متولي العراقي»

١٩ سنة.

طالبة في كلية الألسن.

عزباء.

أرسلها أهلُها إلى المصحة ليتم معالجتها من الهيروين والحقن وهي تُدمن منذ ثلاثة أشهر.

غرفة رقم ٢

رقم الهاتف ٠١٠******

قامَت بتسجيل الرقم وسحبَت الملف الآخر.

«عبد الفضل جاد الله»

٢٣ سنة.

محامي في محكمة النقض.

مُتزوِّج ولم يُنجِب أطفالا.

تم إرساله إلى المصحَّة بعد القضية المشهورة لرجل الأعمال الكبير (حسن مختار العليلي) بسبب تعاطِيه جرعةً من الأفيون قبل أن يدخُل إلى قاعة المحكمة.. يومها تم استئناف القضية، وتغيَّر المحامي، وتم تحويله إلى قسم العجوزة وقاموا بتحويله إلى المصحة لإكمال كافة الإجراءات عليه.

غرفة رقم ١٤

رقم الهاتف ٠١٢******

نظرَت إلى الملف وشعرت أن هناك غُموضًا حول هذا الشخص! محامي كبير يأخذ جُرعةً من الأفيون وهو مقدم على القضاء ووكيل النيابة!! كيف! هنا شيء ناقص، إجراءات تحليل الدم يقول إنه غير مُدمن، حتى إنه لا يُدخِّن!!

سجَّلَت رقمه على هاتفها سريعًا، وأغلقَت الملف، ونظرَت إلى الملف الأخير، هذا الملف الذي حذَّرها منه د/ عصام

«عمر عبد الحميد محمد قاسم»

٢٦ سنة.

صحفي.

أعزب.

أرسله صديقه (محمود حسنين رياض) للقسم الخاص ليتم معالجته في سرِّيةٍ تامة، ودفع المبلغ المتفَق عليه مع إدارة المشفى كاملا.

رقم الهاتف ٠٠١١٠******

رقم الغرفة ١٠

لم يثِر انتباهها كثيرًا.. ولكن هي تشعر أنها سمعت هذا الاسم من قبل أو قرأت عنه.. «عمر عبد الحميد!

قامَت بتسجيل الرقَم، وأغلقت الملف وسحبت الشنطة الخاصة بها، وأخرجَت اللاب توب وفتحَت موقع التواصل الاجتماعي (فيس بوك)

كتبَت في قائمة البحث رقم «زكي محمود الشاذلي».. لم تجِد له صفحةً شخصية على الفيس بوك.

كتبت الرقَم الثاني «هالة متولي العراقي» لتجِد البروفايل الخاص بها.. بعض المنشورات لصفحةٍ سخيفةٍ تُسمى (احتواء) وهيروين وإدمان... وتلك الصفحات التي تكتُب أي شيء لعقول قد أهلكَها التعلم فأصبحَت تكرَه ما كتبَه نجيب محفوظ ويوسف إدريس وطه حسين... وتُعجَب بسطرٍ يحكي عن رقَّة الفتيات واسمهن... وفي النهاية (تابعوا بيكتب حلو)!!

الصفحَة الشخصية لم تُثِر انتباه «وسام» وخرجَت منها.

كتبَت الرقم الثالث (عبد اللطيف جاد الله)

لتدخل البروفايل الخاص به، يضَع صورَة «خالد سعيد».. شهيد ثورة يناير (القشة التي قصَمت ظهر البعير)

تجده مُعجبًا بالصفحات السياسية وبعض الصفحات التي تستخدِم الكوميكس كوسيلة لمهاجمة الحكومة وما شابهَ ذلك.

وتقرأ البوست الأخير له:

(إن لم يكن باستطاعتك أن تقول الحق، فلا تُصفِّق للباطِل، ها نحن نعيش في عصر الغابة، القوي يأكل الضعيف، ينهب كافة حقوقه، يشعُر بالعجز والذل والضعف قبل أن يقضي عليه).

شعرَت أن هناك كارثةً وراء ذلك الرجل.. بعض الكومنتات التي تَنصَحه أن يبتعِد عن ذلك الطريق، وبعض تفاعلات الغضب على البوست.. وهو مازال متمسكًا بما يفعله.. بردِّه على الكومنتات بأنه يستهزئ ويضحك فقط!

خرجَت من بروفايله وكتبت الرقم الأخير (عمر عبد الحميد)

تدخُل البروفايل الخاص به لتجِد أكتر من ٠٧٢ ألف متابع!!

كاتِب في جريدة (إسكندرية توداي).. حاصِل على أفضل مقال درامي وسياسي لعام ٢٠١٥ من قناة النهار.

استُضيفَ في قنوات النهار والقنوات المصرية وبعض الإذاعات...

كاتِب وخرِّيج كلية آداب قسم لغة عربية.

تنظُر إلى البوستات الخاصة به وتجد عددا كبيرًا من التعليقات واللايكات التي تتخطى الخمسة آلاف، ودائمًا أحببتُه وأحزنَني هما المتصدرين في منشوراته...

لم تلحَظ أنها ضمن من يُتابعه.. ها!!

تذكَّرَت.. «عمر عبد الحميد».. كانَت دائمًا تصفُه بالكاتب العبقري.. ربما منذ بضع سنوات هو من شجَّعَني على القراءة.. كنتُ أنتظِر قصصه القصيرة كل أسبوع بفارغ الصبر.. كان كئيبا لأقصى درجة.. ولكنه كان رائعا.. اختفى من الفيس بوك منذ ما يقارب الثمانية أشهر! ولا أحد يعرف عنه شيئا.

آخر ما كتبه على صفحته الشخصية:

- هذه الحياة ليسَت عادلة.. ولن تكون!

نحنُ موتى.. اعتقَدنا أننا على قيد الحياة.. انتهَت الحياة منذ وقتٍ طويل، ونحن نؤمن أن هناك أمل، هناك ضوء، وتستيقِظ لتجد أن الضوء أصبح باللون الأسوَد، يكسو حياتك بأكملها، فتنظُر حولك جيدًا، وتكتشِف أنك في القاع وحدَك، ولا توجد مساعدة ولا شخص تشكو إليه، ولا أي ورقةٍ تُدوِّن فيها ما تبقى منكَ، لا شيء، هنا نؤمن أننا سنموت بصمت!

أكثر من ١٠ آلاف لايك و٢٠٠٠ شير وتعليقات تتجاوَز ٣٠٠٠!! بعض الأسطر البسيطة وصفت كل شيءٍ بداخلهم، سطور اقتلعَت جذورَهم!

ولكن كيف وصل إلى هنا! بعض الإشاعات تقول أنه يتعاطى الهيروين منذ فترةٍ طويلة... ولكن بعض الصفحات التابعة له تظهَر كانتفاضةٍ لتُدافِع عنه وعن أي ما يسيء له.. إلا أنه هو شخصيًا لم يتكلَّم ولم يُبالِ بما يُنشَر عنه! كان مجرَّد كاتب.. ومن يكتُب له ما سبب حُزنك هكذا! يمكنك أن تراسلني على الماسنجر الخاص بنا، يرد عليه بتعليق:

- أنا مُجرَّد كاتب، مش شرط أكتِب اللي بحسه.

نظرَت «وسام» إلى الساعة لتجدها السابعة مساءً!

تُخبِر نفسَها كيف تأخَّرت كل هذا! وكيف لم تسمع صوت الهاتِف! فقد رنَّ والدُها ما يقارب الثماني مرَّات، وابن عمها ذلك المزعج الذي يُحدِّث والدها

كثيرًا عن خطبتها وهو يخبره بالرد الدائم (انتظر إلى أن تنهي كليتها).. أغلقَت اللاب ووضعَته بالحقيبة وارتدتها على ظهرها وخرجت مسرعةً من المشفى، وأوقفَت تاكسي ليوصلها إلى البيت.

بعد نصف ساعةٍ كانت في البيت وهي ترن الجرس فتعجَّلَ فتح والدها الباب وهو يُخبرها بحنان:

- إيه كل التأخير دا يا بنتي؟!

دخلَت البيت واحتضنَته وأغلقَت البابَ بقدميها وهي مازالت تحتضنه.. إن كان الله أعلَن قيامة الأرض وأنت في حضن والدكَ، ستشعُر بالأمان.. حنانه الذي لا يفنى، قسوته التي ترجف قلبه خوفًا عليك.. كل شيء إن كان داكنًا ومُحبطًا يجعله الأب مزينًا لنا.. يأتي بك للحياة لتصنع ما عجز عن صنعه.. يأتي بك ليصفح عن تلك الحياة بك.. يأتي بك لينظُر إلى نفسه أيام صباه وشبابه وعجزه.. سيكون حضن الأب هو الأمان الوحيد وسطَ كل هذا الخراب!

ظلَّت في حضنه ما يقارب الثلاث دقائق وأخبرَته:

-أنا آسفة يا بابا، كنت النهاردة عندي تدريب في المستشفى، والمفروض أختار الحالة اللي همشي معاها في التدريب.

-طيب يلا يا حبيبة بابا، الغدا جاهز، ومش عايز آكُل من غيرك.

***

الفصل السادس

(هناك علاقة تمرّ بها، إما أن تجعلكَ سعيدا وقويًا، أو مريضا نفسيًا.. أنتَ وخياراتك أو قدرَك!)

***

صباح يومٍ جديد.. حياةٌ جديدةٌ، مرَّ أكثر من شهرين و»روان» في غاية السعادة، لم تُبالِ كثيرًا بـ»آدم».

أصبحَت تهتم بمن يجعَل حياتها أفضل، بمنطِق العقل، تهتم بـ»أحمد»، ذلك الشاب الأسمر الوسيم مُدرِّب التنس المشهور.. الذي يتحدَّث الكثير عنه وعن ذكائه، وتتحدَّث الفتيات عن وسامَته... وهي بجواره يملؤها بالكثير من الهدايا والخروجات والفُسَح بسيارته الفخمة... سعيدة معَه كثيرًا، قد وجدَت مَن سيعيش بها حياةً سعيدةً من مال ومنصِب وحُب...

تفتَح «روان» الواتس آب الخاص بها لتجِد رسالةً من أحمد:

-صباح الخير.

-صباح النور يا قلبي.

-طيب.. أنا مسافِر يومين واحتمال موبايلي يكون مقفول، خلي بالِك من نفسِك.

-حاوِل تطمِّني عليك.

-متقلقيش.. أنا هبقى كويس.. باي.

-باي.

لم تُبالِ.. فهو يكون هكذا في أوقاتٍ كثيرة، هذا هو طبعه وأسلوبه.. أتُعاقِبه لأنه يتعامَل بتلقائيته معها!؟

هي تُحبّه.. ولا تريد شيئًا آخر.. بكل منطقيات الحياة هو الشخص المناسب.. هو ذو السلطةِ بسبب أقاربه.. والشهرة والمال والوسامَة وفارق السن أيضًا أكبر منها بأربعة أعوام!

كل شيء يعطيه الأولوية.. كل شيء يجعله الرجل المناسب.. أما «آدم» بكل تصرُّفاته.. هو مازال أمامه الكثير.. أخبرَت نفسَها أنه سينسى وسيجِد فتاةً تُحبه.. رغم أنها تعلَم أن كل ما يمر به بسوء هي أحد أكبر أسبابه.. لكن لا تبالي.. ومن كان يُبالي يومًا بـ»آدم»! حتى هو لم يبالِ بنفسه!

***

الساعة الثامنة مساء

يفتح عينيه المحمرَّتين.. داكنة السواد.. مرَّت ثلاثة أشهر وهو مازال في غرفته.. لم يعلَم أي شيء عن أخبار مَنْ بالخارج.. أمه فشلَت في كل محاولاتها.. وهو لا يُريد أن يُقاوِم.. استسلَم لحُبِّها.. كما يستسلِم الغارِق بعد معافرات كثيرة للبحر.. يَسحَب اللاب الخاص به ويعتدِل في جلسته ويفتَح صفحته الشخصية على الفيس بوك... يجِد نصًّا مكتوبًا عليه (بماذا تفكر) .

ذلك النص الذي يجعلكَ تتحدَّث كثيرًا عن نفسِك.. ونحن نعشَق من يُمجِّد فينا!

ضغطَ وكتب:

(كل لحظةٍ أشتاق إليكِ فيها.. هي مُوجعة.. موجعةٌ حدَّ الموت)!

أغلقَ صفحَته وفتح الأكونت المُزيَّف ليدخُل بروفايلها.. مازالَت البهجَة عليها، سعيدةٌ بأغاني أم كلثوم وعمرو دياب وتكتبها له باستمرار.. وهو يُشاهِد

بصمتٍ ونظرات جامدة.. لا تهبِط منها الدموع.. قد بكى إلى أن أعلنَت عيناهُ عدَم المقدرة على الرؤية!

ينظُر إلى التوقيت ليجِدها العاشرة مساءً.

مرَّت ثلاثة أشهُر.. أخبرَ نفسَه بنبرةٍ حزينةٍ وهو ينظُر إلى أحد الكتُب التي لم يقرأها يومًا.

مدَّ يدَه ليأخُذ الكتاب وهو يملّ كثيرًا من القراءة، فتحَ موقع الساوند كلاود ليُشغِّل موسيقاه التي تزيد من آلامه، موسيقى فقَط، أصبحَ يكره الكلام!

فتحَ الكتابَ وبدأ يقرأ فيه... وشعرَ بالملل بعد عشر ورقاتٍ فقط!

أغلقَ الكتابَ وألقى به بعيدًا ليفتَح البروفايل الخاص بـ»روان» ليجدها قد نشرَت منشورًا منذ سبع دقائق تكتُب فيه:

(شعور جميل جدًا إن يكون في جنبك شخص عايش علشان يسعدِك.. يحتويكي ويخرَّجِك ويضحَّكِك وميخليش نفسِك في أي حاجة إلا و هي عندِك) وفي النهاية تقوم بإشارة في الكومنت لأحمد الذي ردَّ عليها بعد دقيقتين:

- أنا عايش علشان أفرَّحِك وأسعدِك يا حبيبتي.

نظرَ «آدم» إلى البوست وهو صامِت.. لماذا يبكي.. لماذا يصرُخ.. قبلَ أن يخرُج من صفحتها قال في سرِّه:

- كنتُ سأفعَل أكثر مما فعَل.. إن انتظرتِي!

أغلقَ عينيه مرةً أخرى وهوَ ينتظِر أن يراها في الحلم.. فقد اشتاقَ إليها كثيرًا.

***

الساعة الـثالثة صباحًا

الهدوء يعُم على المصحَّة.. يتسحَّب بخُطواتٍ بطيئةٍ من جوار الباب ويأخذ الحديدة التي وجدَها تحت المكتب الخاص بالغرفة ليُقرِّبها من النافذة ليفتحها بحذرٍ وهو ينظُر إلى الباب.. يُقرِّب الحديدة إلى النافذةَ ويُدخِلها ببطء ثم يثني الحديدة بقوة على طرف النافذة لتفتح.. ويرمي الحديدةَ مُسرعًا.. يقفِز من النافذة من الدور الثالث.. هبطَ بكل جسده على قدمه اليسرى.. صرخَ صرخةً قويةً من شدَّة الألَم ولكنَّه حاول أن يُداري الأمرَ سريعًا، ووقف وهو يتحرَّك ناحية السور.. ليُشاهده أحد أفراد الأمن ليجري عليه مسرعًا محاولًا إيقافه.. ينظُر إليه بطرف عينه وهو مازال يُحاول أن يصل إلى السور.. يتشبَّث بقوةٍ ناحيةَ السور ويرفع جسده كله قبل أن يأتي فرد الأمن.. يفتح جهاز الاتصال اللاسلكي الخاص به ليُخبر زميله بأن هناك مريضًا قد هرَب.. يجب أن يلحق به.

كان على قمَّة السور وجسده يتأرجح من العرق والتوتر.. يُحاوِل أن يهبِط ولكنه يخشى على قدمه.. يُغمِض عينيه مرةً أخرى ويهبِط، فيسقط برأسه على صخرةٍ يفقِد بها الوعي.

***

الساعة الثانية صباحًا..

يقف في النافذة وهو يستنِد على العصا التي تسند قدميه.. ينظر إلى الشارع الخالي من الناس.. لا صوت.. لا نور يضيء ذلك الليل غير نور القمر.. حتى الغيوم عليه كثيرة.. إضاءته ليست كاملة.. ليست واضحة.. يسمع تلك الموسيقى بصوتٍ عالٍ، عينيه حمراء.. إنها الليلة الرابعة بدون نوم، والشهر الخامس وهي بعيدة عنه، ستعود.. إيمانه بأنها ستعود أقوى من إيمانه بالجنة والنار! وصل إلى درجة الجنون، إن العقل والقلب والجسد لها وحدَها.. لا يريد شيئًا غيرها.. حتى وإن لم ترِدْه.. يريدها ويتحوَّل لأي شيء لأجلها! ينظُر

إلى الكشك الصغير المضيء لينادي بصوتٍ ضعيف على عم «متولي» صاحب الكشك الصغير.. يأتي تحت نافذته ويرسل له السبَت به خمسة وثلاثون جنيها، يطلب منه علبة سجائر.. نظرَ إليه متولي مندهشا، منذُ متى وأنتَ تُدخِّن.. ربما يُخرج غضبه وحزنه بأي شيء.

- عايزها مارلبورو يا عم متولي.

- وانت من امتى بتشرَب يا «آدم»؟

- من دلوقتي، وانجز.

قالَها له في غضب.. هزَّ «متولي» رأسَه إيجابًا وأحضرَ له المارلبورو، ورفَع السبَت، كان بجواره الولاعة وفنجان قهوةٍ لم يبرد بعد.. يفتح العلبة ليشعل السيجارة الأولى.. يسحَب نفس السيجارة.. ويشعُر باختناقٍ في صدره وحلقه.. يسعل بقوةٍ ثم يهدأ قليلًا.. ويحاول أن يسحبها للمرة الثانية ليتكرَّر نفس الاختناق! والسعال وتدمع عينيه، ووجهه يزداد احمرارًا... ويسحب نفسًا عميقًا ويهدَأ.. وينظُر إلى السيجارة، يضعها بين شفتيه، ويسحب النفس بهدوءٍ ويُخرجها ليسحب الدخان من فمه إلى صدره، وأخرج الدخان بهدوء... ذلك الهدوء الذي يُشبِه الليل والقهوة.. هدوء خارجي.. شعر بارتخاء جسده.. أول مرةٍ يدخُل النيكوتين إلى جسده.. هادئ تمامًا.. رغم هدوء جسده إلا أنه في تلك اللحظة قد أعلَن العقل لعنة الذكريات!

شريط كامل مع صوت الموسيقى مع «روان».. حب جنوني.. يتذكَّر تلك المرة التي كان يُراقبها من بعيدٍ بعد أن تنتهي الحصة.. حركة جسدها، صوتها العذب، رائحتها، شفتيها، عينيها... كل شيء كان غير عادي بها! لماذا انتهى كل شيء هكذا! لمَ لَم تُحبني؟! أنا لست سيئا.. لمَ يُعاقبني الله هكذا! لم أخطئ بشيء.. كنتُ مسالما إلى النهاية.. ولم أرد شيئًا أكثر منها يا الله!

يتفاجأ بانتهاء السيجارة وأنه أشعلَ الثانية، وفي منتصفها أيضًا.. ينظُر إلى ساعته

ليجدها أصبحت الثالثة والنصف... مرَّ وقتٌ طويل، يستنِد على العصا ويضع العلبة في جيبه.. ويُغلِق النافذة، يقترب من غرفة والدته ليجدها نائمةً، يطمئن عليها بابتسامةٍ هادئة.. ويكمِل السير إلى غُرفته، يجلس ويفتح اللاب توب الخاص به ويكتب:

(كنتِ رائعة لدرجة أني اكتشفتُ أن الله لم يخلُق امرأةً غيرك)!

يُغلق صفحته ويفتح الأكونت المزيَّف له، ويدخل البروفايل الخاص بها، بعض المنشورات الكوميدية، وكلمات من أغاني لأم كلثوم! في كل مرةٍ يدخُل صفحتَها وكأنه كان ينزَع قلبَه بيده! أغلقَ الأكونت المزيف، وأغلقَ اللاب توب... وأشعلَ السيجارة الثالثة وهو يتخيل أن «روان» ستتَّصِل به أثناء نومه وتطلُب منه في هذا الجو البارد وتلك الأمطار القوية أن ينزِل للقائها في نفس المكان الذي جمعهما سويا أول مرة! يتخيَّل هذا دائمًا، لا يُفارِق خيالَه هذا الحلم.. انتهَت السيجارة، ونام وهي آخر ما يُفكِّر به، يستمتِع بها وهي بجواره في الحلم.

٠١:١٥ AM

يرن هاتفه بعد صمتٍ طويل.. صمت دام لشهورٍ كثيرة.. يفتح «آدم» عينيه في سرعةٍ كأنه لم ينَم.. كأنه ينتظِر هذا الهاتف من فترةٍ.. يقترب للهاتف ليجد رقمًا غريبًا غير مُسجَّل، يرد ويضع الهاتف بجانب أذنه بدون أن ينطِق...

صمتٌ دامَ ما يُقارب العشرين ثانية قبل أن يتكلَّمَ صوتٌ أنثوي هادئ.. يعلم هذا الصوت جيدًا!! هيَ.. «روان»!!

- «آدم»، أنا «روان».. عارفة إنك يمكن مش طايقني، ومش قابِل إنك تسمَع صوتي، مكنش ينفَع مكلِّمكش، بتمنّى منك إنك تسامحني، رغم إني متأكدة إني سبِّبتلك وجع أكبر من إنك تسامحني علشانه، مش عارفين بكرة في إيه!! يمكن القدَر يتكتب زي ما كنا عايزين، أو زي ما كُنت عايز! تفتكِر لو الفرصة جت، هيكون لسه عندك الشغف بتاع أول مرة!!؟

ينظُر لنافذة غُرفته ليجد أفعى سوداء تلتوي عند النافذة.. ينظُر إليها بفزع، تقترِب منه وهو ساكن كالتمثال لا يستطيع الحركة، تقترب أكثر فأكثر حتى تقِف أمامه ويكونا وجهًا لوجه.. «روان» مازالَت تتحدَّث ولا يُنصِت إليها جيدًا.. تنظُر إليه تلك الأفعى وتلتوِي وهي واقفة أمامَه، قبلَ أن تلدغه بقوةٍ مع صرخة منه يُنادي باسم «روان» على الهاتف و...

ويستيقِظ من فراشه مفزوعًا.. لم يهمه قدر الأفعى بقدر ما يهمه «روان».. صوتها! كان ذلك كل ما يتمنى.. يتمنى أن تتحوَّل أحلامه لحقيقة ولو ليومٍ واحد!

***

الفصل السابع

(كل شيءٍ سينتهي.. عاجلًا أم آجلًا سينتهي.. حتى هذا الألم السخيف)!

***

يفتح عينيه ببطءٍ، وقدمه اليُسرى يشعُر باعتصارها وألمٌ لَم يشعُر به إلا بعد أن استفاق تمامًا...

ينظُر حوله ليجِد نفسَه على سريرٍ ورأسه مربوطةً بشاش إثر الكدمة القوية، وتلك الممرضة السخيفة ذات المؤخَّرة العريضَة تُعلِّق المحاليل، وبدون أن تنظُر إليه:

-حمد الله على السلامة!

لم يرُد عليها، ظلَّ ينظُر إلى الحائط وتلك الساعة التي لا تمر دقائقها... شعرَ أنه هنا منذ فترةٍ طويلة.. فترة تكفي للخروج.

نظرَ إليها وهو يُحاول أن يعتدِل في وضعيَّة جسده، ولكن ألم قدمه المُعلَّقَه أمامه منعَه، وظلَّ راقدًا على سريره وهو ينظُر إليها:

-هو أنا بقالي قد إيه نايم!؟

نظرَت له وهي تقترِب منه لتجلس:

- يعني حوالي تلات أيام.

- أنا عايز سيجارة.

اعتدلَت سريعًا ثم اتجهَت نحوَ الباب وهي تُخبره:

-هروح أستأذن د. عصام الأول.

خرجَت من الباب وهو يلعَن كل دقيقةٍ يمر بها هنا.. كيف وصلتُ لتلكَ الدرجة.. كيفَ أصبحتُ هنا!

لا يهم.. العرَق يهبِط على جبيني وجسدي يشعُر بالبرودة.. رغم أن الشمس مُشرِقة، وعلى ما أظن أن الجو مُعتدِل من هذه الممرضة التي كانت تكشِف جزءا من صدرها.

تبًّا للتفاصيل التي أُعاوِد التركيز بها مُجدَّدًا.. كان أحد أسباب إدماني هو التفاصيل التي مازلتُ حتى اليوم أهرب منها.

دخل «د. عصام» بخطواتٍ بطيئةٍ ومعه فتاة أنيقة رائعة المظهر، جسدها مُتناسِق للغاية، أكثر من رائع، ترتدي المعطف وتنورة لا تتجاوز الركبة، وشعرها منسدل على وجهها، ونظرتها التي تُخبئ عيونَها الزرقاء الرقيقة، عيونها التي تُذكِّره بالسماء والبحر والرمال... وأشياء يتمنى نسيانها للأبد!

«د. وسام»!

....

اختارَت الدكتورة «وسام» أن تُعالِج حالة «عمر عبد الحميد».. كانت أحد المعجبين بشخصيته وكتاباته، ربما تُتابعه منذ أن كانت في المرحلة الثانوية.. وأيضًا أحبَّت القراءةَ على يديه، وها هي الآن طبيبة نفسية بسبب إعجابها بتحليله النفسي والكتابات الغامضة عن علم النفس.. كان كاتبا رائعا وغامضا ومغرورا!! انشغلَ بأربع سنين طب، واختفى هو منذ عام تقريبًا.. قرأت له رواية (لعنة الأصنام) التي هاجَم بها الإله في المُقدِّمة، وأثبتَ كثيرا من النظريات الخاطئة للمُلحدين... كانَت تعتقِد أنه لا ديني، كان قليلا ما ينشُر الآيات القرآنية عبر صفحته، ولكنه كان ينشُر أيضًا للإنجيل وسفر التكوين

للتوراة والتلمود... كان متناقضا للغاية في موضوع الأديان، مرةً يقول أنها مجرد صناعة بشرية لأن الإنسان خُلقَ بطبيعته يخاف من كل ما هو غريب ومجهول فُيقدِّسه، ومرة أخرى يقول إن الأديان الثلاثة مُكمِّلةً لبعضها، وإن وُجدَ تحريف في بعضها فبالطبع ليس تحريفًا كاملًا، كان ينحاز للتوراة كثيرًا، وكان يصفُها بالديانة الأكثر تعقيدًا.. كان يكره الحركة الصهيونية رغم أنه كان يُشيد بذكائهم الخارق بالنسبة لهم، يلعَن العُلماء المسلمين إلا قليلا منهم يكاد يُعد على أصابع اليد الواحدة.. وينبهِر كثيرًا بالعلماء والكتَّاب المُلحِدين، كـ«دان براون»، و«ستيفن هوكينج»... وأناس آخرين، كان لا يخسَر نقاشا، لأنه لم يُناقِش أحدًا من قبل، كان يرى أن النقاشات عبر السوشيال ميديا ما هي إلا مُجرَّد لعب أطفال، كلّ منهم يبحَث في موقع ويستعرِض بعض المعلومات التي لم يفهمها من الأساس، كان سريع الغضب لأنه رأى أحد التعليقات من فتاة كانت تُحدِّثه عن كونه ملحدا رغم أن المقال كان يدعو للتفكير في إعجاز الإله، كتبت: (انتَ علشان الناس بقِت شايفاك مُلحِد بتحاول تهدِّيهم عليك.. دا مش هيغيَّر إنك مُنافق.. مش هيغيَّرك إنك إنسان بتدوَّر على أي سبيل للشهرة، وإن الناس تتكلِّم عليك وخلاص، وانت أصلًا حمار ولا بتفهَم)!!

على ما أذكُر كانت فتاةً بعمر السابعة عشرة!

هنا ردَّه القاطِع، الذي لو كانَت أمامه لاحمرَّ وجهَها وبكَت، كلمة بكَت قليلة، انهارَت في البُكاء!

(مين قال إني مُلحِد! أنا مش بهدِّي حد عليا، لأن أنا مش شايفكم أصلًا، أنا لحد انهاردة محطِّتش صورة ليا علشان محدِّش يعرَفني، فمش معقول إن هييجي بِنت بتحلَم بالأمير وأفلام ديزني اللي هتتقلب عليا! أما بالنسبة للشُهرة، أنا مطلبتهاش، مش بضرِبك أبدًا على إيدك علشان تتابعيني، أما بقى بالنسبة لإني حمار! هنا أحيانًا الكلام بيكون تخطي للحدود، ممكن تكون دي أيام البريود وهو طنِّشك فبتتعصَّبي على مقال كاتِب فيه إن التفكير في الإلحاد ومنطِق

عدم وجود الإله، هو بداية إنك تعرَفي عظمة الله، وكام مُلحِد آمن بالله، أما بالنسبة إني مش بفهم! الأبحاث والمقالات اللي أخدت عليهم جوايز على أسلوب كتابتي وتفكيري المختلِف هما اللي بيحددوا مش بنت قاعدة دلوقتي خايفة لا مُحسِن يسيبها... طب ماما وبابا عارفين بموضوع مُحسِن اللي مغرَّقة الأكونت عندِك، وتقريبًا مفيش غيرُه! أقولك وأوفَّر على نفسي كل الهري دا ****) لفظ لم يُعجِب أي ممن يتابعه، ولكنه كان معروفا بلسانه الطويل وأحيانًا عقله القذِر.

والآن هي تقِف أمامه مُتردِّدة، لا تعلَم تقِف أمامَ مَن؟!

الكاتِب، أم المدمِن!؟

كيف تُعامِله! على أنَّها من عُشَّاق تفكيره وكتاباته.. أم شخص يجب مُعالجته واتخاذ القرارات الحاسِمة مع مريضٍ يكاد يكون خطر!

ولكن قدمه مصابة، لا خطر عليه إلا من نفسه!

....

نظرَ «د. عصام» إليَّ وكأنه يُريد أن ينهي المقابلةَ سريعًا:

-عامل إيه دلوقتي؟

نظرتُ إليه بدون أن أنطِق.. صمت لمدةٍ تزيد عن ثلاث دقائق.

قطعتُ ذلك الصمت:

- عايز سجاير!

ردَّت «وسام» عليه:

- أنا آسفة ممنوع.

قالَتها في حزمٍ وشدةٍ.

نظرَ إليها في غضبٍ وهو يميل رأسه كعادته عندما يبدأ بتحليل شخص ما، أو استخدام أسلوب لم يعجب أحد.

نظر إليها «د. عصام» للإشارة أن التدخين مُصرَّح به.. ولكنه أعجبته قوّتها وحماستها مع حالة «عمر».

قال «د. عصام» وهو ينظر إليّ:

-أتمنى إنك متتعبهاش.. الفترة الجاية هتكون تحت العلاج معاها، إن شاء الله هتخرج من هنا كويس.

هدأ غضبي قليلًا، ونظرتُ إلى الشباك والحديقة التي يجلِس فيها هؤلاء المجانين، قلتُ:

-اخرجوا علشان عايز أنام.

ظلُّو وافقين وكأنهم لم يسمعوا شيئا.

نظرت إليهم في سرعةٍ وغضب، وصوت عالٍ يهز أرجاء الغرفة.

-يلا

أطفأَت «د. وسام» النور وخرجَت ومعها «د. عصام»، وأنا أنظُر للسقف وأتخيَّل أن السيجارة بين يدي وأنا أنفث الدخان.

-اللعنة!!

***

نتمنى أن نخرُج من أجسادنا لو لمرةٍ واحدة.. نعيش كالأشباح نطِير في الهواء بدون أي قيود أو خوف.. نطير بعيدًا عن تلك الفوضى التي بداخلنا...

أخيرًا.. تلك اللحظة الحاسمة التي يستنِد بها على كتف أمه وهو ذاهب إلى الطبيب ليفك الجبس عن قدميه.. سيتمتَّع بالحركة أخيرًا في غُرفته!! أربعة أشهر والجبس في قدميه.. لم يُرد فكَّه منذ ثلاثة أشهر بسبب اكتئابه وعُزلتِه الدائمة، وأمه التي لم تستطِع السيطرة عليه...

يقترب ويجلس على السرير، ويقترِب منه أحد الممرضين ويبدأ بفك الجبس، وخلال دقائق انتهى من فكِّه، ومازالت الحاجة «زينب» ترفُض أن تتركه يتحرَّك وحيدًا، تُجبِره على أن يستنِد عليها.. ينظر «آدم» إليها وهو يُحاول أن يُبعدها، وبالفعل يدفَعها برفقٍ:

-ماما أرجوكي.. أنا بقدَر أتحرَّك.

كانَت حزينة للغاية على كل ما يحدُث لابنها الوحيد، كيف تغيَّر إلى هذه الدرجة! لم تُرِد أن تُحرجه بأنها وجدَت علبة السجائر، قالَت:

- طب تعالى نقعد في أي مكان نتكلِّم فيه شوية بس.

- نظرَ إليها «آدم» وقال:

- أنا آسف يا ماما.. مش عايز أتكلِّم.

- علشان خاطري يا حبيبي، أنا مخنوقة وعايزة أتكلِّم معاك شوية.. مش انت صاحبي وابني وحبيبي وكل حاجة في الدنيا دي؟

نظرَ إليها بمَلَلٍ وهزَّ رأسه إيجابًا:

-موافق.

ذهب إلى أحد الكافيهات بجوار المشفى، وجلست الحاجة «زينب» وهو.. اقترب منهم النادل بعد أن جلسا بعدَّة دقائق ليسألهما:

-تشربوا إيه؟

نظرَت إليه الحاجة «زينب» مُبتسمةً:

- اتنين عصير فراولة بلبن.

رفع «آدم» يديه وقال له:

- واحد بس وقهوة سادة!

نظرَت إليه أمّه في دهشةٍ:

- مِن امتى وانتَ بتشرب قهوة سادة!؟

نظرَ «آدم» للنادل بأن يرحل. أعادت عليه «زينب» السؤال مجددًا:

- من امتى بتشرَب قهوة سادة يابني!؟

- قُريِّب يا ماما..

قالها بصوتٍ هادئ.

- دي مع السجاير!؟

لم يبالِ بأنها قد علمَت بأمر السجائر، وهزَّ رأسَه إيجابًا.

- مالَك يا «آدم».. اتكلِّم معايا مالَك يابني؟ فين «آدم» ابني! فين الصلاة! فين روحَك الحلوة ودمَّك الخفيف! فين كلامَك الكتير، ليه بقيت ساكِت، جرالك إيه؟!

قالَتها بضعفٍ وانهيار، قالَتها وكانت على وشك أن تبكي.

اقتربَ النادل منهما ووضع القهوةَ والعصير... وأكملَت:

- رُد عليا، حرام عليك اللي بتعمِله فيا دا...

قالَتها وعينيها بدأت بالدمع.نظرَ إليها ولم يتحمَّل أن يرى دمعةً تهبِط من عينيها.. أعطاها المنديل وقال لها أن تمسح دموعها ليتحدَّث. مسحَت دموعَها سريعًا ثم قالَت له:

-ها.. يلا.. اتكلِّم.

ارتشَف قهوته ونظَر إلى الناس المارة بالخارج وبدأ بالكلام:

- مفيش يا ماما، مخنوق بس.

قاطعَته:

- علشان بعِيد عن ربنا!

ربما في تلك اللحظة انتشرَ غضب «آدم» ونهرها بشدةٍ وتكلَّم بصوتٍ مُتقطِّع:

- وربنا فادني بإيه! أصلِّي ليه؟ ما أنا كتير بدعي، ومفيش دعوة واحدة بس اتحقَّقت، واحدة بس!! أنا بحتاجله جدًا، بتمنى منه يقبل الدعوة، وأنا عايزها بضررها عايزها، بكل حاجة فيها عايزها، ليه بيحرمني منها! ليه القدر اللي كتبهولي مش مُنصِف! مش عادِل...

كان يبكي وهو يتكلَّم، لسانه الثقيل الذي يتأتئ به، صمتٌ لمدة أربعة أشهر جعل لسانه ثقيلا.

نظرَ إليها وجد عينيها تدمع مرةً أُخرى.

- استغفر ربنا يابني، خير، أكيد خير، ربنا عمره ما بينسى حد، أكيد كان بيبعِدك عن الدعوَة دي علشان خير أكبر.

مسحَ دموعَه بكُم قميصه:

- أنا من ساعة ما اتولدت مفيش أي خِير حصلِّي.. والدِي اتوفى وأنا صغير، دا أنا حتى مشوفتهوش، وسابلنا فلوس كويسة جدًا في البنك بنعيش من فوايدها، بس إيه الفايدة، أنا وانتي بس، يا ماما مفيش حلم حلِمته واتحقَّق، كُنت محتاج أي حاجة، حاجة تقولي إن صلاتي دي مش بتضيع كدا، كنت عايز ربنا يكون جنبي في أي حاجة، اشمعنى صحابي اللي مش بيركعوها حالهم أفضَل منِّي! ليه.. دا أنا اللي بصلي وبعبُده وبحبّه! أنا في قُربي من ربنا مش مرتاح، ولا في بُعدي عنه، أنا كدا مبسوط.

تحوَّلَت نظرات الحاجة «زينب» إلى غضبٍ وقالَت له:

- «آدم» أنا ماشية رايحة البَنك، احنا في أول الشهر وعايزة أجيب الفلوس، هتيجي معايا ولا هتروّح؟

نظرَ «آدم» إلى المارَّة في الشارع، وبدون أن ينظُر لها:

- هاقعُد هنا شوية وهروَّح.

أخرجَت «زينب» من محفظتها مائتى جنيه ليُحاسِب ويضع الباقي في جيبه... تركتها على الطاولة ورحلَت.

وانتظر حتى خرجَت من الكافيه تمامًا، وأخرجَ عُلبَة السجائر وأشعلَ واحدةً تلوَ الأخرى، ومازال بجواره فنجان القهوة، وعقله تائه بـ»روان»، وكأنَّها انتزعَت روحَه من جسده وحطمَتها أمامه!!

طلَب الشيك ووضع سبعين جنيها ورحَل.

تنتظِر «روان» رسالةَ أحمد! ولكنه لم يُرسِل، رغم أنه مُتَّصِل الآن أمامها، تشعُر بعدم اهتمامٍ مِنه، ولكنها تُحبّه، تحب منه تلك اللحظات السعيدة الصغيرة، والتي قليلًا ما تعيشها معه، تُهيِّئ نفسها كثيرًا بأنها ستُصبح زوجَته، وهذا هو طبعه، ويجب التعوُّد عليه من الآن، تُرسِل له رسالة:

-حبيبي، انتَ فين؟!

لم يقرأ الرسالة، ولكنه مازالَ نشطا أمامها.

-طيب أنا محتاجة أتكلِّم معاك شوية، مخنوقة بجد!

قرأَ الرسالةَ ولم يرُد!

بعد بضع دقائق من قراءتها أرسلَت له إيموشن غاضب.. قرأَه أيضًا، ولكنه لم يرد.

تكتُب له وهي في حالة غضب:

-طيب، تصبَح على خير!

قرأها وهي مازلَت غاضبةً، غاضبة وعلى وشك البكاء لتتفاجأ أنه يتصِل بها بعد عشر دقائق...

- اطلعي البلكونة.

- لا مش طالعة.

- اطلعي البلكونة.

قالها وقد ظهرَت نبرَة الغضب على صوته، ارتعَش جسدُها من صوته:

-حاضر حاضر.

خرجَت للنافذة وهي تفتحها لتجِد لافتةً مُعلَّق عليها (بحبك) معلقةً في الهواء بالبالونات المملوءة بغاز الهيليوم، وهو واقف تحت المنزِل وينظُر إليها ويسألها في الهاتف:

-إيه رأيك!!؟ لسه عايزة تنامي؟

دمعَت عيناها من جمال المنظَر ومن ابتسامته وهو يقِف تحت منزلها، وبصوتٍ مُتقطِّع يتطاير فرحة:

- أنا بموت فيك يا أحمد.

- وأنا كمان يا حبيبتي.

***

يخرُج من الكافيه وهو ينظُر إلى أوجه الناس، لم يرهُم منذ فترةٍ، جامِعَته التي لا يعلَم عنها شيئا، ذكريات دائمًا تخونه، نورٌ قد انطفأ بداخله، أصبح في ضوء النهار، لا يرى سوى العتمة، وقفَ أمام أحد البارات في المنشية، بار من التراث القديم، ملوَّن باللون الأصفر وبعض الخطوط الخضراء و مصابيح مُتّخذة الشكل الدائري مرصوصة بجوار بعضها على الباب من الخارج، كزينة خارجية، ظلَّ واقفًا ما يُقارب الساعتين، يراوده تفكير دائم، يدخُل، لا يدخل، لا... إلى أن أخذَ قرارَ الرجوع إلى المنزِل بعيدًا عن تلك الخمور، بعيدًا عن هؤلاء.

***

الفصل الثامن

(قد تخلُق لكَ الحياةُ ما هو أكثر من الألم، قد تخلُق لكَ روحًا مُختلفة، أو موتًا دائمًا!)

***

وقفَ ينظُر إلى الطرُق في سكون الليل، فنجان القهوة الذي برد بين يديه، والسيجارة بين إصبعيه، يتشبث بها بقوة، يتمنى ألا تنتهي، أن تتحمَّل مأساته، تواسي حُزنه، تمسح قليلًا من قلقِه وتوتّره، كانت الأخيرة، ينظُر لها بتوسُّل ألا تنطفئ.. تحمَّليني إلى أن أخلُد للنوم، لا تترُكيني هكذا!

تنطفئ السيجارة وينتهي فنجان القهوة، لتندمج جُرعة النيكوتين والكافيين بداخل عقله، يُحاول بكل الطرق أن يُسكِت عقلَه، يجعله في حالة استرخاء وهدوء، يعلَم تمامًا ما سيحدُث...

أغمض عينيه لدقائق، وكان المشهد الذي لا يوجد بداخله سواه، «روان» تجلس أمامه.

يُعلِن العقلُ الحربَ!

كان يُحاول أن يهرب، لا يُفكر بها، يصمت، لا فائدة إلى أن بكى مرةً أخرى، ذلك الألم الذي لا تستطيع التخلُّص منه! فتستسلِم له.. كان «آدم» كذلك، استسلمَت روحه لـ«روان» بدون أي مُقاومة، استسلمَت ورضيت بمهانة وذلة لها، استسلمَت وأعلنَت ألا روح ستدخُل جسدَه إلا بعودتها، استسلم كما يستسلم الماء للنار، فيتبخَّر!

يفتح الفيس بوك ليرى الإشعارات، بعض اللايكات التي لا بأس بها على بعض

منشوراته.

ينظر إلى ذلك المستطيل السخيف الذي يُجبِرك دائمًا أن تتحدَّث عما تشعر به.. فيرى كل من عندك، إما أن يشمتوا في حُزنك، أو يضغطوا لايك وكومنت يحتوي آية أو حكمةً ليواسوا حزنَك بها! ابتعِد دائمًا عن هؤلاء الأشخاص بائعي الكلام، هؤلاء يُجيدون المواساة لا الشعور، ونحن دائمًا نبحث عمن يشعُر بنا، يشعُر بنا بدون أن نتحدَّث، يكفي أن يشعُر! يكتُب...

(وعند رحيلك.. فقد كل شيء جمالَه، صمتَت العصافير، انطفأت الشمس، ساد الليل في ظلامٍ دامِس، وقمرٌ لا فائدةَ من إضاءته!!)

يفتح الأكونت المزيَّف الآخر ليراها، لا يستطيع أن يتحمَّل يومين فقط بدون أن يطمئن عليها من بعيد، تنشُر صورةً لها وهي تحتضنه من ظهره، وتكتب فوقَها: (ربنا ميحرمنيش منك يا أجمل حاجة حصلتلي، ويخليك في قلبي).

يقرأ وطعنة السكين في قلبه!

يرتدي قميصَه الخفيف في صمتٍ وشرودٍ غريب ليذهَب مُسرعًا إلى نفس المكان الذي وقف أمامه! ربما الآن أعلنَ أنه لا مجال لإسكات عقله سوى بالهروب!

الجو مُعتدِل رغم الزحام الذي كرهَه دائمًا، يكره الإسكندرية بالشتاء لقسوة بردها، وصيفها لازدحامه بشدّة، وكأن البحر في الإسكندرية فقط!!

يركب إحدى سيارات الأجرة من الكورنيش، ويذهب إلى المنشية، كان السائق رجلا ضخما، أنفه كبيرة وأصلَع الرأس، وشاربٌ يغطي فمَه، وله بطن كبيرة تصِل لفخذيه... ينظُر إليه في المرآة، كان شكله مُقلِقا، ملامح باهته، عيون حمراء، سوادٌ يحتل جفن العين، عظام وجهه بارزة، جسدٌ نحيف وهزيل، وشعر وذقن طويلة... تغيرتَ كثيرًا يا فتى في عام واحد!

كان يجلِس سارحًا، يُفكِّر كعادته في أدق تفاصيل «روان»، منذ أن رأى عينيها

لأول مرة بالكافيه، والتأخر ومكالمات نصف الليل، تحركه على السور، سقوطه، ضحكها، وحزنها... شريط كامل يراهُ كل يوم خلال عام! كاذبٌ من قالَ أن الوقت يُنسي كل شيء، الوقت مجرَّد إثبات أنك عشتَ تلك اللحظات، ليقتلها لا ليُنسِيها! نفترض أنك نسيت، هل ستعود كما كُنت!؟ بالطبع لا!

أيقظَه صوتُ السائِق الغليظ:

-في حد مدفعش الأجرة هنا!؟

لينظُر رجلٌ إلى «آدم» يبدو من لهجته أنه من الأرياف:

- انتَ لسه مدفعتش يا أستاذ.

نظرَ «آدم» في تردُّد إليه ونظر مرةً أُخرى للسائق، وبصوتٍ يُحاول جاهدًا أن يجعله ثابتا:

- ك ك كام!

لسانه الثقيل.. رسميًا أصبحَ لا يستطيع التحدُّث ولو بجملةٍ كاملة بدون أن يتأتئ بها مثل الأطفال.

قالَ السائق بنفس نبرة الصوت المخيفة:

-تلاتة جنيه.

هزَّ «آدم» رأسه إيجابًا وأخرَج خمسة جنيهات من جيبه وأعطاها للسائق، بعد مرور بضع دقائق، هو شاردٌ بتفكيرِه ولكن بالناس على الشاطئ، يُفكر بتلك الطفلة البريئة التي تلعَب بالكرة على الشاطئ، وأنها ستكبر ذات يوم وسيعشقها رجل مثلي لتُحطِّمه أمامها كما حطم إبراهيم الأصنام! سينظُر لكل فتاة على أنها «روان»، أصبحت عينه لا ترى سواها! وقلبه مازال يدُق لها، يتنفَّس على

احتمال عودتها من جديد، يعيش على أمل أنها ستشعُر بكَم العذاب الذي ذاقَه منذ فقدانها! وقفَ السائق في المنشية لينزل ويتحرَّك بخطواتٍ هادئة إلى كاب دور، أو بالاسم الأصيل (بار الشيخ علي)، أحد أقدم بارات الاسكندرية، بار تجاوز القرن، يقف أمامه ويُشاهد السكارى وهم خارجون، يقترب بهدوءٍ رغم ضجيج عقله في الاقتراب والامتناع...

أصواتٌ تتصارع بعقله، أصوات هوس، أصواتٌ رحلَت، أصوات تُعلن حربًا قد تفتِك برأسه...

- «آدم» متدخُلش.. ادخل جرَّب.. لا دا غلط.. ومِش غلَط اللي حصلَّك! هتفضل صُغيَّر لامتى.. أمك ملهاش غيرَك لو عرفِت كدا تموت.. «روان» قالتلَك إنك صغير وقد أخوها اللي عمره خمس سنين، بتخاف من الخوف نفسه.. لا هتجرَّب، ابعد.. «روان»!!

- هششششششششش

قالها بصوتٍ مسمُوع، صوتٌ جعلَ الرجل الذي يجلِس على باب البار ينظُر إليه، كان رجلًا طويلًا متوسطَ الوزن أصلَع وله ذقن وشارب بالطابع اليوناني، ويرتدي قميصًا أصفر بنصف كم...

ينظُر إليه الرجُل نظرات جامدة:

-عايز حاجة يا كابتن؟

نظرَ «آدم» إليه وهو لا يعلَم ماذا يقول.. لينطق بعد صمتٍ دام ما يقرب من ثلاثين ثانية:

-أنا عايز.. أدخل.

-عندَك كام سنة؟!

- نظرَ «آدم» إليه ولا يعلم بما سيرد، لاحظَ أن كل من بالداخِل كبار، لا يقل أحد منهم عن السبعة والعشرين.

- ات ات اتنين وعشري يين سنة!

نظرَ إليه كثيرًا ذلك العجوز نظرات الشك، ولكنه صدَّقَ بسبب ذقنه الكثيفة وطوله الجيِّد، رغم جسده الذي أصبح نحيلا:

- اتفضل.

اقترب «آدم» من باب الدخول ليهمِس الرجلُ في أذنه وهو بجواره:

-معلش يا حضرت بس ممنوع الدخول لأقل من ١٢ سنة، بس هنعدِّيها!

نظرَ إليه «آدم» بابتسامة صفراء، ودخل ليجِد المكان كلاسيكيًا ورائعًا بشكلٍ لا يُصدَّق.

بعض اللوح المعلَّقة تعود لحكاياتٍ وأساطير مختلفة، وشوارع قديمة بُنيَت الآن وغطاها الزحام والسيارات وبعض الجنود الإنجليز والفرنسيين واليهود أيضًا.. وصورةٌ لأحد وزرَاء «الملك فاروق»، كان هذا المكان يحفظ تاريخًا لم يُكتشَف بعد، كان المكان يضاء بالنور الخافِت وأغاني الجاز الهادئة، تلك الموسيقى التي تُضيف سحرًا خاصًا للمكان، تُضيف هدوءًا واسترخاءً لا تشعُر به كثيرًا، الموسيقى يمكن أن تُعتبَر هي المخدِّر الحلال، رغم أنها تُدمِّر قليلًا من أعصاب المخ، وأعتقد أن هذا سبب كونها حراما! ولكني أنحازُ جدًا إلى فيروز (أعطني النايَ وغني، فالغنا سرّ الوجود)

زجاجات البيرة مُنتشرة، وفتياتٌ أعتقِد أنهن من نفس عمري أو أكبر قليلًا، وكان من يخدِم في ذلك البار بعض الرجال ذوي بشرة سمراء داكنة، اقتربتُ أكثر لتنظُر إليّ سيدةٌ قد تتجاوَز العقد الرابع من عمرها، قصيرة القامة، ترتدي ما يُشبه الطرحة على رأسها، جسدها ممتلئ قليلًا، وتمتلِك عيونا خضراء وبشرةً

بيضاء...

كانت تنظُر إلي منذُ أن دخلت، ظللتُ واقفا ما يقارب العشر دقائق، أتأمَّل المكانَ وما فيه، لتُشير إليّ بأن أقترِب. نظرتُ حولي حتى أتأكَّد أنها تقصدني أنا. فنظرَت لي ثانيةً ولكن تلك المرَّة قالَت:

-تعالى هنا.

كان صوتها غريبا، قالتها وكأنها مازالَت تتعلَّم العربية! اقتربتُ منها حتى أصبح الفرق بينا حوالي ثلاثين سم.

- نعم..

قلتُها بصوتٍ ضعيف.

نظرَت إلى عيني مُباشرةً:

- انتَ عندك كام سنة؟

- ات ات اتنين وعشرين.

نظرَت إلي في شكٍّ غير مُصدِّقة:

- طيب ممكن أشوف بطاقتَك.

شعرَ أنه سيُطرَد لا محالة، وضعَ يده في جيبه يتصنَّع وجودها، وينظر لها بأسفٍ شديد:

- مش معايا.. مجيبتهاش.

لمعَت عيناها نصف لمعةٍ وأخبرَته:

- آسفة موش ينفع تقعُد هنا، لازم نتأكِّد!

شعرَ بخيبة أملٍ وكان يريد أن يظل بأي طريقة.

نظرَ لها وقال:

- مُستعد أقسملك...

قاطعَته:

- لا موش تذكر اسم الله هنا!!!

صمَتَ...

تكسر هذا الصمت بعد دقيقتين:

- خلاص اقعد هنا، والمرة الجاية موش تيجي من غير بطاقتك.

أشار برأسه إيجابًا.

عادَ ونظرَ مرة أخرى للمكان، كان عبارة عن الصالة الخارجية التي عندما تدخُل تستقبلها في وجهك، كانت مستطيلةً، والبار يتخذ الشكل المستطيلي الطولي، يوجد عليها أربعة عشر كرسيًا متخذين الشكل الدائري مرصوصين بجوار بعضهم، وحوالي سبع طاولات، وكل طاولة يوجد بها أربعة مقاعد، أما الصالة الصغيرة كان يوجد بها أربع طاولات فقط ونفس عدد المقاعد.

أما الغُرفة الصغيرَة التي تقع بين الصالة الكبيرة والصغيرة يوجد بها أربع طاولات، وأغلبية ما يجلس بها فتيات، وتضاء بالنور الأبيَض، على عكس الصالتين إضاءتهما بُنيَّةً خافِتة!

كان المكان مُزدحما، هؤلاء السكارى الذين تبدأ حياتهم في الليل، من يهربون

من ضوء النهار، ذلك الضوء الذي لا يُنير بل يحرق، أو يعمي.

وجدَ مقعدًا فارغًا على البار وجلس.. إحساس غريب.. تلك القشعريرة الأولى التي تجتاحك عندما تشعُر بالذنب، قلق وتوتر، ضربات القلب السريعة، والجسد الذي يرتعش الرعشةَ الخفيفة التي لا تظهر لأي شخص، اللحظة التي تظُن نفسَك بها ملاكًا، إلى أن يُصبح هذا الذنب روتينا، وتراه ذنبا عاديًا، وتبدأ في إصدار الفتاوى بتحليلِه.. كيف تُبرِّئ عقلَك من أفعاله الشيطانية!؟ سؤال كافٍ لأن يُخبرك أن ضميرَك مات أو مازال يتشبَّث بما تبقى من روحك!

نظر إليه النادل:

-تِشرَب إيه.؟

كان أسمر اللون، لديه بطن صغيرة، وشعر صغير مجعَّد، وشفتيه غليظة، وأذنيه صغيرة... كان يرتدي قميصا أبيضا والببيونة السوداء، وينظُر له بابتسامةٍ عريضة تُظهِر بياض أسنانه.

نظر له طويلًا لا يعرف ما يُخبره، فكَّر في الرحيل مرارًا وتكرارًا، وعقله لا يُطاوعه، يُعطيه الأوامِر ويرفُض، يُخبره بأن يرحَل، ويتمسَّك به...

ليقطَع ذلك الصمت الطويل صوت الفتاة التي تنام على البار بدون أن ترفع رأسها لتقول للنادل:

-هاتلو شيفاز.

ينظُر إلى تلك الفتاة نحيفَة الجسَد وشعرها الأسود الطويل، والتيشرت البرتقالي يُظهر جزءا من صدرها، ورأسها التي تستند على يديها في وضعية النوم... وضعَ النادل الكأس الصغيرة أمامه. نظر إليه بحدّة، تأمَّل الكأس جيدًا، تجربة جديدة لمَ لا يخوضها، عسى أن يجد راحته في هذا الكأس، عسى أن ينساها، يطردها من عقله، يطردها بلا رجعة..

يرتشِف منه قليلًا ليجد طعمه عذبا، حلو قليلًا ولكنه مثل النار عندما يمر على حلقه، ليُغمض عينيه بشدةٍ ويُخرج الهواء ساخنًا من فمه، وتتسع عينيه بشدة.. ارتشف الرشفة الثانية، والثالثة... إلا أنه بدأ يشعُر بهدوء جسده، وعقله يهدأ تمامًا، انسحاب تمام، تطايرَت الذكريات كما يتطايَر دخان سيجارته، شعر بالسعادة والقلق، سعادةٌ لأن «روان» لأول مرة لا تُمثِّل له شيئا، شعور يُشبه الصنَم لا يشعُر ولا يحس بشيء... قلق لأنها لأول مرة تكون بعيدة أشد البعد عن عقله، ظلَّ ما يقارب النصف ساعة على هذا الحال.. حاول الوقوف أكثر من مرة، ولكن الأرض تهتز تحته، وقدميه تُعلن خيانته، قام بإسناده النادل سريعًا قبل أن يقع، ويحدِّثه بتلك اللهجة الأسوانية:

-مش قد الشرب بتشرَب ليه!

نظرَ إليه وهو يبتسِم وازدادت ابتسامته وضحكَ! ، ضحكَ بصوتٍ عالٍ مسموع، ضحكَ وهو يطرُد كل شيء بداخله، ضحكَ وهو يتذكَّر «روان» ولا يتحرك شيء بمشاعره، ضحك وخرجَ من البار، وما إن تحرَّك قليلًا إلا وتطاير الكحول من رأسه، ضحكه العالي تحوَّلَ إلى صمت، ثم إلى بكاء، مازال يفتقدها، مازال لا يرى غيرها، مازال مُشفقا على نفسه كثيرًا، مازال يُحاول أن يُعيدها، لا فائدة من محاولةٍ فاشلة، لا فائدة من تلك الأوهام التي تخلُقها لنفسك أثناء ضعفك لتعود للأمل من جديد!

إن كنتَ في أشد حالاتك السوداء، تأكَّد أن أي أمل سيكون كذبة!

يتحرَّك نحو الشاطئ في سكون الفجر، أذانٌ لا يُفيق سكرَه! وجسدٌ لا يشعُر، ومشاعرٌ يقتُلها بالبطيء... يتحرَّك ليقف أمام البحر، ويجلس على الأحجار في هدوء الأمواج، ويدخُل في نومٍ عميق، وهو مازال يبكي ويتذكَّرها بأصغر تفاصيلها!

صوتٌ هادئ يُسيطِر على عقلها.. بعض الأحلام التي لا بأسَ بها التي مازالَت

تطوف بها أرجاء غُرفتها، صورته، وابتسامَته، وذقنه، وشعره... تلك الأشياء التي تزيد من جمالها أكثر من جمالِه، وتبدأ ابتسامتها في الاختفاء تدريجيًا، تتذكَّر «آدم»، أحيانا نحيا على ذكرى من ماتوا لأجلنا!

تفتَح صفحتها الأخرى التي لا يعلم عنها أحد لتدخل صفحتَه، أصبحت السوشيال ميديا هي وسيلة الاطمئنان على بعضنا! بعض السطور التي لا نقرأها كاملة تصفنا وتصِف شعورنا، ماذا إن كنتُ في أسوأ حالاتي.. بعد المنشورات السخيفة التي أصف بها شعوري، ثم ماذا بعد!؟ قليل من اللايكس والكومنتس... إلا إذا كنتَ مشهورا، ستظل حزينا كما أنت، ولكن برفقةٍ تتمنى لكَ الحزن الدائم! أو قطعة من الشهرة!

تدخُل صفحتَه لتجد مزيدا من التعاسَة والحزن... سطورٌ رائعة ولكن لا تقرأها كلها، تشعر بالذنب، ولكن عندما يتعلَّق الأمر بالمستقبَل والزواج و العائلة يجب أن نختار الأنسَب والأصلَح لنا، ليسَ من نُحب! كانت تلك كلمات أمّها وخالاتها.. الكلمات التي رُبِّيَت عليها وكبرت على هذا الأساس، نضجت على ما اختارته لها العائلة، ليس ما أرادت!

تُغلِق صفحتها وتفتح الأكونت الرسمي لديها لتجد في أول المنشورات فتاة تُمسك بيد «أحمد» خطيبها وتقترِب بجسدها منه، وهو أيضًا ممسك بها وينظُر إلى الكاميرا... وتكتُب فوقَ الصورة (أحلى مُدرِّب في الدنيا)! ربما كانت من نفس عُمرها! وبدأ عقلُها بالتفكير.. كيف يُمسِك يديها بهذا المنظَر؟ ولمَ تقترِب منه إلى هذا الحد؟ تساؤلاتٌ كثيرة أشعلَت نار الغيرة، لتدخُل بروفايلها «سما جودة» وتجِد بعض التعليقات من «أحمد»، وصور قديمة تُظهِر بها نصف صدرها والشورت وبعض الصور في الساحِل وشرم والإنستجرام، موقع العُري الرسمي لكثير من الفتيات!

وتدخُل على تاريخ الميلاد لتتفاجأ أنها من نفس عمرها!!

تُحاوِل الاتصال بـ»أحمد» تجد هاتفه مغلقا، حاولَت كثيرًا ولكنه مُغلَق، رمت الهاتف بعيدًا عنها وحاولَت أن تكتم غيرتها وبكاءها! صمتَت كثيرًا إلى أن أتت لها رسالة نصية على هاتفها! وما إن رأت الرسالةَ حتى انهارَت في البكاء..!

***

الفصل التاسع

(الشخص الذي طالما كرهتَه، أنتَ الآن على استعداد لاستقباله، قف أمام المرآة فقط!)

***

الموجُ، وشمس الصيفِ الحارقة، وضوضاء المصيِّفين، والميكروباصات تُوقِظه من النوم!

الساعة الـثامنة صباحًا وهو مُلقى ووجهه مدفون في الرمال، ولا يشعُر إلا بصداعٍ رهيب يكاد يفتك برأسه، يُحاوِل أن يقِف أو يستنِد على أي شيء للوقوف، إلى أن أمسكَ بيد شاب في مثل عمره تقريبًا، الشمس غيَّرَت وجهه وذراعيه إلى اللون القمحي الداكن، وطوله المتوسط وجسده النحيف ورقبته الطويلة بعض الشيء وعيناه السوداوان... بائع العوامات والألعاب في الشاطئ، وقفَ على قدمه، ونظرَ ذلك البائع إليه بينما هو ينظر إلى الأرض واضعا إصبعين على رأسه.. وقال:

-أساعدك في حاجة يا باشمهندس؟

بدون أن ينظُر إليه شكرَه ورحل.

ركبَ أحد الميكروباصات بجوار السائق، وأخرج من جيبه خمسة جنيهات وقال له:

-سيدي بشر.

أخذ الخمسة جنيهات وبقي هو صامتا، يُحاول أن يتذكَّر كل ما حدث أمس!

عقله تائه بين ما يحدث.. مُستقبَل لا يُحدِّد شيئا، من عاقِل يحيا على ذكرى فتاة، ولكنها ليست كأي فتاة، اشتاقَ إليها كثيرًا، اشتاق لمحادثاتٍ لا تنتهي معها، اشتاق لعيونها التي تسحر الكون وتُحطِّم قواعد الفيزياء المركبة...

اشتاق لأن يكون معها، حتى ولو أصدقاء!

مرّت ساعة تقريبًا بسبب ازدحام المواصلات، ثم وجدَ السائق يُخبره:

-سيدي بشر يا صاحبي.

نزلَ واتَّجه مُسرعًا للمنزل ليفتح الباب، فوجد أمّه جالسةً وكان الغضب على وجهها واضحًا جدًا. بدون أن يُعقِّب، نظر لها وتحرَّك إلى غُرفته، لم يلاحظ أن آثار السُكر مازالت واضحةً عليه أثناء حركته.

تَقِف أمّه مُنفعلةً:

- كُنت فين؟

لم ينظُر إليها ولم ينطِق، وأكمل تحرّكه لغُرفته.. لتمسكه أمه بقوةٍ وتدفعه ليستنِد على الحائط قائلة:

-كُنت فين بقولك؟!

قالَتها بصوت مرتفع، قالَتها وقد كان غضب الدنيا كله فيها!

-ك ك كنت مع صحا ا ابي.

-وريحة بؤّك عامله كدا ليه؟

حاولَ أن يُبعِدها عن طريقه ويذهب إلى غُرفتِه، ولكنها أمسكته للمرةِ الثانية:

-انتَ شارِب؟

هزَّ رأسَه إيجابًا في تردُّد.

وما إن هزَّ رأسَه حتى صفعَته على وجهه بقُوةٍ! لأول مرة «زينب» تضرِبه!! نظرَ لها وهي تتحدَّث معَه وتحاول أن تحبس دموعها:

-إيه في إيه مالك!! الكلية اللي أنا قدمتلك فيها ومروحتش، قعدت في البيت وبهوِّن عليك ومش عارفة، أقنعتَك إنك تروح لدكتور كتير وبترفُض وتزعَّق، وقبل كدا سجاير، ودلوقتي خمرَة! أبوك لو كان عايش كان قتلَك يا مات تاني بسببك، عايز إيه قولي! اتكلِّم، ازاي انت «آدم» اللي مش بيسيب فَرض؟! ازاي انتَ الولَد اللي البيت كله بيضرب بيه المثل في الأخلاق... ازاي!

قاطعَها وهو يبكي مثل طفلٍ لم يتعلَّم شيئا في حياته سوى البكاء، قاطعَها والدموع تنساب ولا يعلَم كَيف يُوقِفها! قاطعَها وهو لا يملِك شيئا إلا أن يصرُخ، يتكلَّم، عسى أن يفهموا أن كل ما يحدُث له فوق طاقته:

-ض ض ضعِيف يا أمي، ضعيف للدرجة إنهم بيدوسوا عليا، ضعيف علشان غلبان، ضعيف علشان كُنت أضحوكة ليهم، ضعيف علشان ربنا وأخلاقي مفادونيش بحاجة، إيه سبب اكتئابي، وحيد، مليش حد، والشخص الوحيد اللي كان جنبي شرَّبني الذل والإهانة وأنا رضيت، ضعيف يا أمي علشان فاشِل، علشان مش بعرَف أتكلِّم حتى...

ثم يدفَعها ويدخُل غُرفَته وهو يبكي، ويُقسِم أنه في تلك اللحظه تمنى الانتحارَ بشكلٍ كامل!

استلقى على السرير، وظلَّ يبكي حتى شعر أن ضبابا يحتل المكان، ثم أغمضَ عينه مُستسلِمًا له، ونام...

٥:٠٠PM

الحاجة «زينب» تطرُق البابَ قُرب أذان المغرب:

-«آدم»، حبيبي اصحى جهِّزتلَك الغدا.

استيقَظ، ولكنَّه لم يرُد، أول مرةٍ ينهَر أمه، صوته لم يرتفِع عليها أبدًا، ولكنه لم يتحمَّل ما قالَته!

- يا «آدم» يابني قوم بقى.

- حاضِر يا ماما جاي..

قالَها وهو يُشعِل سيجارته، سحبَ منها نفسًا عميقًا وكتمَه بداخل صدره، النيكوتين عامِل جيد للهدوء!

خرجَ من غُرفته ليجد أمّه تضَع الطعام: فراخ، مكرونة باشميل، وتجلِس تصلي المغرِب وتنتظِره، جلسَ أمام الطعام والتلفاز، ليسمع أمّه بجواره تدعي بصوتٍ ضعيف ومنخفض:

- يا رب، ابني معنديش غيرُه اجعلُه في أحسن الأحوال وعدّله حاله، يارب عاقِب ابني فيا متعاقبهوش هو، يا رب متعاقبنيش في ابني، يا رب اجعله في أحسن حال يا رب.

سمعَها وابتسمَ ابتسامةً خفيفةً لم يُظهِرها، لتقوم وتجلس أمامه:

-يلا يا حبيبي بسم الله..

تُقطِّع الفرخة وتضع الصدر له وطبق المكرونة الخاص به، وتنظُر إليه وتُكمِل:

-يلا يا روح ماما كُل، علشان بقالنا كتير مقعدناش كَلنا مع بعض.

هزَّ رأسَه إيجابًا، وابتسمَ قليلًا، وبدأ يأكل، دائمًا ما تذكَّر (لا أحد سيُحبك مثل أمك)! وأنا أقول: لا أحد في العالَم مثلَ أمي.

انتهى من الأكل حتى شبع، وأمه تنظُر إلى الطبق لتجده مثل ما هو، على حد وجهَة نظرها هي:

-أكلَك قَل أوي يا «آدم» بسبَب الزفتة اللي في جيبَك دي!

ابتسَم وهو ينظُر لها:

- لا، أنا ش شبعت يا ماما.

- وعايزين نرُوح لدكتور علشان لسانَك دا!

ابتسمَ ابتسامةً صفراء وتركَها ودخَل غُرفته.. فتَحَ اللاب ثم فتح الأكونت المزيَّف ليجِد «روان» تضَع صورة البروفايل (سوداء)!!

لم يتحمَّل أن يراها حزينةً، فيُرسِل لها رسالةً من ذلك الأكونت المزيَّف:

- «روان»، انتي كويسة؟ أنا «آدم»..

أرسلَ الرسالةَ وهوَ يعلَم أنها ستَضعه على قائمة البلوك، وبالفِعل، بعدها ببضع دقائق وضعَته على قائمة البلوك!

الآن لا يستطيع أن يعرِف عنها أي شيء! باتَت مُظلِمةً أمامَه، ولا يستطيع أن يراها مُجدَّدًا.

فتَح البُروفايل الخاص به ليجِد عددًا جيدًا من المتابعين الجدُد، رسائِل من فتيات كثيرات تُحدِّثنه عن سبب اكتئابه، ومن أين يسرِق تلك السطور التي يكتُبها على بروفايله، يقرأ ولا يرُد، أكونت خالٍ تمامًا من الأصدقاء...

أغمضَ عينيه ليكتُب منشورا آخر:

(تفاحة شكلها مغري وطعمها رائع في فمك يا جدي، أما أنا ألعنك يوميًا بسبب

التفاحة التي أتَت لي بالتعاسة والشقاء والعذاب إلى اليوم الذي سأذهب فيه إليك).

دخلَت أمُّه الغرفةَ وهي تحمِل فنجانين من القهوة، نظرَ إليها وقال:

-في وقتهم يا زوزو.

ابتسمَت وهي تضع القهوة وتسحَب المقعد لتجلِس بجواره:

- ممكن بقى يا «آدم» تتكلِّم معايا؟

- في إيه؟

- في اللي بيحصل دا، مش بتنزِل الكلية و...

- ماما، احنا شهر ٤ والتيرم التاني بيخلَص اهو ومرحتش أصلًا التيرم الأول، يعني أنا سقطت خلاص، وبعدين انتي اللي اختارتيلي الكلية.

- مهو انت اللي في أوضتَك ومش بتتكلِّم مع حد.

- خلاص يا ماما أنا مش آخر ولا أول واحد يسقَط، هبقى أنزِل السنة الجاية وأنتظِم.

- بالمنظَر دا شكلك عُمرك ما هتنتظِم في حاجة..!

- لا، إن شاء الله هبقى كويس.

- اوعدني يا «آدم» إنك تبطَّل خمرَة، دي من الكبائِر يابني.

هزَّ رأسَه مُريحًا إياها.

- لا متهزليش راسك، متعملش زي أبوك، كان بيريحني بالكلام فيهزِّلي راسه.

- حاضِر يا ماما أوعدِك إني مش هشرب تاني.

شربَ فنجان قهوته وذهب للحمام ليغتسل من الرمال التي تملأ جسدَه من ليلة أمس، وارتدى ملابس أخرى تيشرت أسوَد وبنطلون أسود واسِعان جدًا عليه، وسحبَ علبة السجائر...

- هترُوح فين يا «آدم»!!؟

- هنزِل يا ماما أتمشَّى شويَّة.

- هتتأخَّر؟!

- لا.

- خلِّي بالَك من نفسَك يا حبيبي.

هزَّ رأسَه لها، وسحبَ علبَة السجائر الخاصة به، ونزلَ ولا يعلم أين سيذهَب! أو ربما يعلَم ولكن لا يريد.

***

مرَّ عامٌ وهي مخطوبَة، عام لم تلحَظ كم تغيَّرت الأشياء كثيرًا من حولها، عام أشبَه بمائة عام على «آدم» وبضعة أشهر على «روان».

تقِف أمام نافذتها وهي تنتظِر «أحمد» أن يأتي تحت البيت ليشرَح لها ما تم إرساله!

تفتَح حسابَ أختها على الفيس لتراقب «آدم»، تُراقب ذلك البائس الذي أصبحَ ميتًا مُنذ رحيلها، تُراقِب عدد المتابعين والأصدقاء لديه لتجدهم يتزايدون بكثرةٍ، تقرأ كلماته التي لا قيمة لها وسط هذا الهرج، تخرُج من حساب أختها وهي تُخبره في سرها:

- سامحني.. أنا آسفة يا «آدم».

وصلَ «أحمَد» وهي تُحاوِل الصمود قدرَ المستطاع، ليشير لها وتنزل مُسرعةً مرتديةً الجاكيت البني والبنطلون الجينز الأزرق وحذاءها الأبيض...

نزلَت بهدوءٍ وفتحَت باب السيارة لتركب بجواره وهو يُحدِّثها بنفاذ صبر:

-خير، كنتي عايزاني أجيلك ليه؟

ظلَّت تنظُر للهاتِف لتفتَح الرسالةَ التي تلقَّتها أمس، وتعطي الهاتف لأحمد الذي نظرَ إلى الصورة وابتلَع ريقه بصعوبة، صورةٌ لخطيبِها «أحمد» وهو يحتضِن ويُقبِّل فتاةً من شفَتيها وهما عاريان!

بدأَت ملامح التوتُّر والقلَق والعرَق تظهر على وجهه قبل أن يُحاول الثبات ويعود لابتسامته الواثقة، ذلك الشيطان الذي يُحوِّل الكارثةَ لحدث عابِر وسُحقًا لمشاعِرنا وكرامتنا بعدها...

ابتسمَ «أحمد» وعاد برأسه للوراء وابتسامته تزيد إلى أن ضحك بشكلٍ مُتقطِّع، ضحكَ ضحكات هيستريَّة وألقى الهاتِف وعيون «روان» تمتلئ بالدموع وتُحاوِل أن تجد تفسيرا لما ترى.

بدأت ضحكات «أحمد» في الهدوء، وخيَّمَ الصمتُ في السيارة لمدة خمس عشرة دقيقة.. قاطعَت «روان» ذلك الصمت وهي تنظُر له وتحاول أن تظهر مُتماسِكة قدرَ الإمكان:

-إيه ردَّك على الصورة دي!؟

أشعلَ «أحمد» سيجارَته وصمتَ ما يُقارِب الدقيقةَ ينفُث دخان سيجارته فقط، يُحاول أن يُرتِّب كلامَه حتى لا يتحدَّث في هذا الموضوع ثانية.. اعتدلَ «أحمد» في جلسته وهو ينظُر للمرأة، وقال:

-البنت دي بتحبِّني، وكوني شاب فأنا ضعفت لما كُنت في حضنها، عادي أي راجل بيضعَف.

نظرَت «روان» له وهي مازالَت صامدةً وصامتة!

وأكملَ «أحمد»:

- بقالي معاكي سنة، ممكن أكون حاولت أقرَّب منك أكتر من مرة بس كنتي بتمنعيني، كنت بقرَّب منك بدافِع الحب مش الشهوة، أنا البنت دي مصاحبها علشان حالتها النفسية مش أكتر، وتقريبًا أنا أكتر شخص عايز يغُور في داهية منها.

مسحَ «أحمد» بيديه دموعَها التي انسابت من عينيها بلُطفٍ وأكمل:

-أنا بحبك يا «روان»، ومش ممكن أسيبِك، والصورة دي من قبل ما أخطبك.

بدأت «روان» تهدأ قليلًا وهو يُحاوطها بيديه، يضع يده الثانية على وجهها ويُقبِّل رأسَها بهدوء، وأخبرها بصوته الهادئ:

- ها يا حبيبتي، تحبي نتغدى فين؟!

- أي حتة..

- طيب أنا عازمك في أحلى غدا في سان جوفان.

وأدارَ سيارَته وتحرَّك، وكأن شيئا لم يحدُث!

الشيطانُ بارعٌ دائمًا في دبلوماسيَّته! حتى عندما يرى نهايته يحاول أن يُبقيها لوقتٍ أطوَل، كما فعل مع الله (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُون).

ظلامٌ بداخلكَ لا يشع نورًا، ظلامٌ بداخلكَ يعمي كل من يقترِب منك!

مرَّ أسبوعان آخران أحاول فيهما التأقلم قدر الإمكان، أسبوعان كاملان تحت عناية «وسام» ولا أتحدَّث معها إلا قليلًا.

أسبوعان لا أستطيع التحرُّك من فراشي بسبب عجز قدمي المعلقة، أسبوعان لا أفعل فيهما شيئا سوى الأكل والقراءة والنوم!

مازلتُ أحاول أن أتظاهَر بالقوة والكبرياء، مازلتُ أحاول الصمود، مرَّ الوقت وأنا أشعُر كأنه قرون من الزمن، أشعر بأحصنة طروادة كلها تدُور في عقلي، النوم والعرَق رغم برودة الهواء، وتوتّر مستمر، كلما أمسك بالقلم يهتز من بين يدي ويقع.. أسبوعان كاملان، أتمنى أن أشنُق نفسي لأرتاح من هذا العذاب، لا فائدة من كل ما يحدُث، أريد سطرا واحدا من هيروييني فهو قادر على إعادة توازني من جديد!

يطرُق أحدٌ باب غُرفته وهو يقرَأ أحد الكتب...

لم أتكلَّم، أعرِف من هي، لا أحد يُتابعني كل هذه المدة غيرها! «وسام»!

اقتربَت مني تلك الطبيبةُ، سأكون كاذبًا إن قلتُ أنني لا أشتهي جسدها كثيرًا، ولكن بطبيعتنا نحنُ نشبه الأسود كثيرًا في صيدنا للحيوانات، ننتظِر ونتقرَّب جيدًا إلى أن تسمَح الفُرصةَ بالاقتراب، وهنا لا تأتي الرحمة، كل ما بداخلي يكون لها! لإشباعي فقط!

اقتربَت مني وهي تُراجع تغيّرات جسدي:

- شكلَك بيتحسِّن!

نظرتُ لها وعاودتُ النظر إلى كتابي مُجدَّدًا.

- هو انت مبتتكلِّمش ليه!؟ إيه الفايدة يعني في كونَك ساكِت طول الوقت!؟ دا حتى كل اللي هنا في المصحَّة ما بيصدَّقوا إنهم يتعالجوا شويَّة علشان

يرجعوا لطبيعتهم!

نظرَت إلى عيني مُباشرةً وأنا في غضبي المعتاد، وصمتَت ما يُقارب الدقيقتين وأكملَت:

- مهو حالتَك الجسدية بتتحسِّن، لأن السواد اللي كان تحت عينك بدأ يختِفي، ووشك بدأ يظهَر من تاني، أما النفسية فانت بسكوتَك دا بتحبِس نفسَك، والعلاج النفسي بيساعدنا كتير في العلاج الجسدي...

أغلقتُ الكتابَ بنفاذ صبر، وزفرتُ بقوةٍ قبل أن أُحدِّثها:

- انتي رغاية ليه؟!!

ربما لم تهمها صفة رغاية بقدر ما أهمّها أني تحدّثتُ!

- رغاية! وماله، مش مُهم، المهم إنك اتكلِّمت.

ظللتُ أنظر إليها وعيناها تلمَع من السعادة، لم أرُد عليها ونظرتُ للحديقة، وهي مازالت تنظُر إلي، إلى أن اقتربَت مني بهدوءٍ وجلسَت بجواري وأنا أنظُر للنافذة:

-مش عايز تخرُج؟

لم أرُد، وظللتُ أنظُر إلى الحديقة...

-طيب يا أستاذ «عمر» يعني بعد إذن حضرتك ممكن نكون صحاب؟ دا لو مش هتقَّل عليك.

-لا انتي تقيلة أصلًا من غير حاجة.

قلتُها وأنا أنظُر للنافذة، ربما أشعُر ببعض السعادة من تلك الطفلة التي تُمثِّل

عليَّ دورها كطبيبة نفسية، وأنا أعلم جيدًا ما تُحاول أن تفعَله من قبل أن تفعله.. عُزلتكَ مع الإنترنت وبعض الكتُب قادرة على تعليمِك ما لم تتعلمه في ستة عشر عامًا من التعليم الحكومي!

- تقيلة!! مبتفهَمش في العود الفرنساوي يبقى متتكلِّمش لو سمحت.

قالَتها بطريقتها الطفولية، ونظرتُ لها وأنا أشعُر ببعض الراحة:

- موافق نكون صحاب.

مدَّت يدها لتُسلِّم عليّ وتُخبرني:

- أنا وسام، ٢٣ سنة، طالبة في الفرقة الخامسة، وبتمرَّن فيك.

خرجَت مني ابتسامة تلقائية، ومددتُ يدي لها وسلَّمتُ عليها:

- وأنا «عمر»، بس كدا!

- بتشتغَل إيه؟ ولا انت مين؟ ولا سنّك؟!

قالَتها وهي تعلَم كل شيء عني، تريدني أن أتحدَّث عن نفسي، ساذجة وقد تكون طبيبة نفسية فاشلة، يجب أن تختار لُغةَ جسدها بدقة في تلك المواقف.

بدأَت ابتسامتي الخبيثة تظهَر وأنا أنظُر إليها باستهزاء:

- عمر عبد الحميد قاسم، ستة وعشرين سنة، خريج آداب لغة عربية.

- بس كدا؟

- آه.. بس كدا.

قلتُها وعاودت النظرَ مرةً أخرى للحديقة.

- بس اسم عمر عبد الحميد قاسم سمعت عنه قبل كدا!

- لا معتقِدش.. وأي اسم سمعتيه مُجرّد تشابُه أسماء مش أكتر.

- آه افتكرتَك، انت كاتِب، ليك حتى روايتين ومشهورين جدًا، (قطيع ذئاب ولعنة الأصنام)! دا غير أكتر من ٣٠٠ ألف متابع على بروفايلك!!

لم أُعقِّب على ما تقوله وظللتُ أنظُر للحديقة.

-بس انتَ بقالَك كتير مبطَّل كتابة، حتى بروفايلك كل فين وفين لما بتنزل سَطر ليك! دا حتى انت...

قاطعتُها:

- بطَّلت كتابة.

- وأدمَنت هيروين!؟

- يعني!

- ليه؟!

- أسباب تخصني لوحدي، ومش معنى إني اتكلِّمت معاكي أو وافِقت نكون أصحاب يبقى تتدخَّلي في حياتي!

- أنا آسفة، بس كنت بحاول أهوِّن عليك.

- لا متهوِّنيش، مش أنا أخدت العلاج واطمِّنتي واتغدِّيت؟ اتفضّلي اطلعي برا بقى!

لم تُعقِّب وهي مَصدومة من ردِّه، كيف انقلَب في دقائِق إلى هذا المنظَر، حالته النفسية ستتحسَّن إذا تكلَّم فقط، هكذ كانت تعتقِد، كان يسحر القارئ

بسطورِه، لم يكن يمتلِك الشكل أو الجسَد الجذاب للنساء، ولكن القلم كان يتحوَّل لأفعى بين إصبعيه.

خرجَت «وسام» من الغُرفَة ولم تُطفئ النور.. وأمسكتُ الكتاب وأنا أحاول أن أشغل تفكيري في أي شيء آخر، كيف يمكن أن أبدأ من جديد، روايتين أُنتقَد من أجلهما بسبب إلحادي! ورواية أخرى، وكانت الأولى لي ولم أعترِف بها كـكاتب حتى، ولم تتحدَّث عليها أيضًا، ضاع حبري وقلبي، روايتي التي تعبتُ بها كثيرًا وأخذَتها دار النشر مني ونشرَتها باسم شخصٍ آخر، ورمى لي بعض المال الذي يزيد حسرَتي على كل تلك الجوائز التي تحصُل عليها روايتي!

ولكن.. لماذا كل تلكَ السعادة مع «وسام»! لا أرتاح عندما أسمع صوتها! لماذا أظل متمسكا بكل هذا الغرور والتكبُّر! لم لا أتحدث لها، تبدو رائعةً في عقليتها أو جسدها!

أغلقتُ الكتابَ ونظرتُ للسحاب وأنا أفكِّر بداخل عقلي، عشتُ كثيرًا في الليل، متى سيأتي نهاري!

***

الفصل العاشر

(ستفيق على كابوسٍ يجعلكَ تقطَع كلَّ خيوط الأمل التي تمسك بها!)

***

ذهبَ للبار وكأنّه يبحث عن شيء ينتظره، ذهب إلى القاع الذي وجدَ راحتَه فيه، دخلَ البار وجلسَ بجانب تلك الفتاة التي طلبَت له الكأس في آخر مرة.. جلسَ ينظُر لها بحذَر وكأنه يتصنَّع أنه لا يراها، أما هي نظرَت له بعد أن جلسَ بجانبها، نفثَت دخان سجائرها في وجهه، وهو يُزيح الدخان بيديه، وهي مازالت تنظُر له فقالت:

-بتكرَه السجاير؟

قالَتها بعد أن أخرجت النفَس الثاني في وجهه مجدّدًا. نظرَ لها وهزَّ رأسَه قائلا:

-بشرَب.

سحبَت علبة السجائر الخاصة بها وأخرجَت منها سيجارةً وأعطتهُ إياها، جاء النادل فقالَت:

-هاتله ويسكي.

لم ينطِق، نظر النادل له وهو يُحرّك رأسَه إيجابًا.

أخذ السيجارة وأشعلَت له من ولاعتها الخاصة، وبدأ بسحب نفسه الأول! ونظرَ لها يتأمَّلها جيدًا، كانت نحيفةَ الجسَد، سواد تام تحت عينيها كأنها لم تنَم منذ عام! كانت آثار تعاطي المخدرات تبدو واضحةً جدًا عليها! شعرها الأسود وبشرَتها القمحيَّة وعيونها البنية، وقميص أحمر مخطّط بالأسود مفتوح

يَظهَر منه جزء من صدرها، وبنطلون جينز أزرق باهِت مُقطّع من الرُكبة.

لم أشعُر إلا والويسكي يُوضَع أمامي ومازالت هي تنظُر لي وتضع رأسها على يديها وتبتسِم...

أعاود النظر أمامي مجدّدًا، أنظر لذلك الكأس الصغير وأشربه مرةً واحدة، كما أشاهد دائمًا، شعرت أن هناك نارًا تحرق حلقي وصدري، لسعةٌ كهربائية تمرّ في كل جزءٍ بفمي، أخذتُ النفس الأخير من السيجارة بعُنف، أخذت الدخان حتى امتلأ صدري وطردتُه بهدوءٍ مع أنغام الموسيقى، تلك الموسيقى التي تساعد على الاسترخاء التام، استرخاء يدخلك إلى عالمٍ آخر، ترقص مع خيالك بدون تشويش، قلبك هادئ وعقلك سارحٌ إلى ما بعد الخيال، إلى ما بعد «روان» والعالم...

أغمضتُ عيني وشعرت أن مفاصلي تنساب، لا أشعُر بجسدي، الحركة سهلة، تتطايَر روحي مع صوت الموسيقى ولم أشعُر بنفسي إلا وأنا أضحك بصوتٍ عالٍ في البار والكل ينظُر إليّ، كنت أضحك بشكلٍ هيستيري، بشكلٍ لم أشعُر به من قبل، ضحكتُ وكأن هذا العالم أصغر من أصغر حشرةٍ أدهسها بقدمي.. أعتقد أن تلك هي أعظم اللحظات، التي تُسلِّم بها روحَك وجسدَك وعقلَك للهواء، تسلم نفسَك لمخدِّر يُنسيك كل ما مررتَ به، ويجعل كل شيء خفيفًا، سخيفًا، لا أهميةَ له!!

بدأت صوت ضحكاته تهدأ، وهي مازالَت تنظُر له وتبتسِم، ونظر لها وابتسامة عريضةٌ تُظهِر أسنانه الصفراء وهو ينظُر لها، ويبدأ العزف يتغيَّر، وتأتي موسيقى من الطراز الفرنسي الكلاسيكي، لتمسكَ يديه تلك الفتاة وتوقفَه ليرقصا سويًا، رقصَ ولم يشعُر بالوقت ولا الناس.. رقص معها وهي كانت تُحرِّكه وهو لا يفعل شيئا سوى التحرُّك مثلها، لم يُجرِّب الرقص مُسبقًا، وهي ترقُص معه باحترافية شديدة ليتعبا سويًا من شدَّة الرقص ويجلسا وهما يضحكان.

فتح زجاجةَ الماء ليشرب وهي أشعلَت سيجارتها وعاودت النظر إليه قائلةً:

-جِديد هنا!

-آه.

-تاني مرَّة أشوفَك.

-ب ب بس ان انتي مشووفتنيييش!!

لاحظَت تأتأتي في الكلام فبدأَت تضحَك عليّ، وأنا وضعتُ عيني في الأرض وعدتُ أنظُر إلى الكأس الجديد الموضوع أمامي...

-انتَ زعلت؟!

هززتُ رأسي بالنفي:

-لا.

-أمال مالك؟

-م مكُنتش بتهتِه!

-وحصلَّك إيه!؟

سحبُت الكأسَ وشربتُه كله مرة واحدةً، ولم أنتظِر حتى أخذتُ منها علبة السجائر وأخرجتُ سيجارةً وأشعلتُها وجاوبتُها:

-مفيش.

ووقفتُ أعدِّل من هيئة ملابسي وخرجتُ وهي تنظُر لي ومازالت تلك البسمة على وجهها، بسمةٌ تُشعِرني أن كل ما أقوم به ليس الأسوأ، بسمةٌ تؤكد لي أنه

مازال يمكنني الهروب...

مشيتُ على الشاطئ وإحدى الأغاني التي لم أشعُر أني تفاعلتُ معها:

(شو لمَّا بعزّ الزحمَة تكون وحيد.. كوني بعيد.. بعيد وبخاف بالوقت البُعد يزيد، الكلمة اللي ملوّع قلبي مرّا رح طفي نارا وطفي جَمرا، وخلّص روحي وقُولا اليوم لو حتى مرّة).

نظرَ الناسُ إلي، ولم أشعُر أني كنتُ أغني بصوتٍ عالٍ على الكورنيش والكثير من البشر ينظرون لي، منهم من قالَ إني مجنون، ومنهم من قال إنه يُحاول لفت الأنظار إليه، ومن سمعتُها تقول أريد أن أحب شخصًا تلقائيًا ومجنونًا مثل هذا، ومنهم من قال إنه سكران ويجب رميه في السجن... ولكن لا يهم، ربما تلك الجُرعة التي تُنسيني «روان» ولو قليلًا، هي أعظم بكثير من أي شيء.

وصلتُ المنزل وكان معي المفتاح، دخلتُ بهدوءٍ حتى لا تسمعني أمي، أغلقتُ البابَ بهدوءٍ ودخلتُ مسرعًا لغُرفتي، وارتميتُ على السرير كأني جُثة! ولم أكمِل بضع ثوانٍ حتى ثبتَ جسمي في نومٍ عميقٍ لم أشعُر مثلَه من قبل!

***

لا أمل من إصلاح أخطاء الماضي حتى إصلاح نفسك بات صعبًا للغاية!

لم تُصدِّق «روان» «أحمد»، شعرَت أن هناك خدعةً لا تشعُر بها، ظلَّت تُفكِّر لماذا تلكَ المرة لا تُصدِّقه؟!

لماذا هناك شكًا قويًا فيه! شعرَت أن الأمان الذي كانت تشعُر به معه اختفى، حتى حديثهما أصبح مملًا، حديثا لا يمتلك أحدا منهما، كل منهما يشتم الآخر في سرِّه.

صوتُ الهاتِف، خلفَها رسالة على الواتس اب...

لتجدَ تسجيلا صوتيا من رقم غريب لا تعرفه، لا أحد يتطفَّل عليها سوى «آدم»، ولكن لماذا شعرَت هذه المرة أنها ستكون بخيرٍ لو تحدَّثَت معه! شعرَت أنها اشتاقت له، شعرت لأول مرةٍ أنه لم يكُن الطفل الذي رأَته لأول مرة!

فتحَت التسجيل لتجد تسجيلا لصوت فتاة وصوت «أحمد» خطيبها:

- وناوي تعمِل إيه مع «روان»؟

قالتها تلك الفتاة.

- يا بنتي «روان» مُجرَّد استثناء، واحدة حلوة، استايل وعليها العين، وأنا عايز كدا واحدة أخرُج معاها هنا، نروح هنا، اخطفلي بوسة كدا، حضن كدا، ليلة حلوة في حضنها... كدا يعني.

- لا مهو مش معقول كدا، لازم تسيب البنت دي بقالَك سنة معاها، محبِّتهاش ومش عايزها!؟

- أحب مين! هقولك على حاجة، «روان» واللي زيِّها دول حلوين جدًا للتسلية وتضييع الوقت، واحدة تزن عليك وأي كلمة ليك مُجابة، دي أنا أشكِّلها بمزاجي.

- ممكن تتعَب بسببَك وتدخُل حالة نفسية زي الزفت.

- يا ستي وأنا مالي ما تتحرق، وعامةً أنا هسيبها قُريب.

- ازاي؟

- إيه دا انتي غلبانة أوي يا بنتي، هو مكان عاطفي والورود والشموع وأضحَك معاها في أول شوية... وبعد كدا أمثِّل إني بعيَّط وأمسح دموعي وأنا آسف انتي تستاهلي حد أحسَن مني، وتنزِل الستارة بتاعت الفصل الأخير من المسرحية...

كانت «روان» تستمع للتسجيل وهي مُنهارَة تمامًا في البكاء، وتضع يديها على

فمها ولم تنطِق شيئا سوى (ذنب «آدم»)، (ذنب «آدم»)، (ذنب «آدم»)...

بعد أن انتهى التسجيل، وصلَت لها رسالة أخرى من نفس الرقم:

(حاوِلت أنبِّهك بس أنا عارف إنك ممكن متصدّقيش، يوم الخميس الأسبوع الجاي هتروحي الغُرفة التجارية جنب المعهد الموسيقي، عمارة ٥ الشقة رقم ٧، هيكون في الشقة مع واحدة، هبعتلِك المفتاح مع حد، حاولي تكوني طبيعيَّة جدًا معاه لو عايزة مصداقية أكتر...)

رأت الرسالةَ ولم تنتظِر أن ترد حتى تفاجأت ببلوك!

أغلقَت هاتفها ودخلَت بروفايلها لتلغي الحظر عن «آدم» لتتفاجأ أنه لم ينشر أي بوست أو يفتَح الأكونت الخاص به منذ أسبوعين! «آدم» لا يختفي كل هذه الفترة، أرسلَت له رسالةً:

(عايزة أتكلِّم معاك)

وهي على أملٍ أن يرى الرسالة، فتحت صفحَته وقرأَت كل ما يكتُب، تلك المرة قرأت بتعمُّق، قرأت حتى هبطَت دموعها من جديد حُزنًا على ما فعلَته به!

***

من رحم الألم تولد المواهب.. ولكنك لن تتخلَّص من الألَم مهما فعلت ومهما نجحت، سيظل بداخلك، سيظل يظهَر في وجهك، وحديثك، وعينك التي لا يقرأها إلا من فهمها!

مرَّ ما يُقارب العشرين يومًا وأنا على سريري وقدمي مرفوعة، ولا أفعل أي شيء سوى قراءة بعض الكتب التي قرأتُها كثيرًا أو الروايات الجديدة التي تهدف إلى المال والشهرة وجمع بعض الفتيات. في السابق استخدموا القلمَ ليكتُبوا به كلامَ الله ويحكمُوا به بالعدل وتطوير العقول... والآن استخدموه لجذب الفتيات

والمال! والعيب ليس عليهم، بل على الجمهور الذي يُدعِّم هؤلاء! والآن أصبحوا الأغلبية!

يجب أن يُكتَب على ظهر القلم:

(القلم ثمنَه جُنيهان، وليس من حق أي شخص استخدامه!)

طُرقَ البابَ بطريقةٍ نغميّة، وأنا أعلم من يطرُق الباب جيدًا، ابتسمتُ وقلتُ بصوتٍ هادئ:

-ادخلي يا «وسام».

دخلَت «وسام» وهي تحمِل الإفطار وتقول لي:

-مع إنه مش اختصاصي! بس بُمناسبة إننا بقينا أصحاب أخيرًا.

-طيب نزلي بقى علشان جعان.

نظرت إلي وبعينها الفرحة:

-شايف بقى منظرَك حلو ازاي لما بطَّلت، خدودَك كبرت و...

قاطعتُها:

-خدودي كبرت!!!

-هزَّت «وسام» رأسَها إيجابًا بفرح:

- آه.

وضعتُ يدي على وجهي ولم ألحظ ذلك الشعر الكثيف المغطي وجهي، بدون أن أتحدَّث وجدتُ «وسام» تُخرج من جيبها ماكينة الحلاقة قائلة:

- خلَّص أكل وهحلقلَك دقنك.

ضحكتُ بدون أن أنطق. لم أشعُر بتلك السعادة من قبل!! أشعُر أن أشياءً كثيرة تغيَّرت على مدى ثلاثة أشهر عشتُهم هنا في المشفى، كيف ذلك!؟

أتذكَّر كل ما مررتُ به في الماضي، وأصمتُ ثانيةً وأنا أتناول الطعام، كل أملٍ تمسكتُ به ما هو إلا مُجرَّد وَهم! لا أريد أملًا جديدًا!

شعرَت «وسام» بي، مِن صمتي المفاجئ، من شُرودي وأنا أفكِّر...

-مالَك؟!

لم أسمعها! لم ألحَظ أنها موجودة في تلك اللحظة، شعرتُ أني عُدت مرةً أخرى وحيدًا، شعرتُ أن هناك مَنْ ينتظرني بالخارج ليعطيني جرعتي، وأعرف تمامًا مدى ضعفي واستسلامي! أعرِف نفسي أكثر من أي شخص، لا يغريك ذلك الصَلب المغرور القوي من الخارج، أنت لن تُصدِّق إن قلتُ لك أن قطعةً من نار جهنم يُعذَّب بها كلّ ليلةٍ، كلما شعرَ بالوحدة!

نادَته «وسام» ما يقارب الأربع مرات، حتى هزَّته بيدها:

-يا «عمر»..!

-ها!

نظرتُ إليها وقد شعرتُ أنني مازلتُ هنا في المشفى

-مالَك!؟

-لا مفيش.

-احنا مش اتفقنا نكون أصحاب!؟

-آه.

-طب اتكلِّم معايا، احكيلي مالك؟!

طلبتُ منها سيجارةً بعد أن كنتُ أختلس السجائر من الممرضين بدون أن تلاحظ.. لم تُوافق في البداية، ولكن بعد ذلك خرجت وأحضرَت لي سيجارتين، وأشعلتُ واحدةً وصمتُّ، وهي تنظُر لي بترقُّبٍ شديدٍ وأنا أنفُث دخان السيجارة بشغفٍ، أسحب منها نفسًا قويًا وأحاول أن أحبسه بصدري لأطوَل وقت، أحاول أن أستمتع بذلك النيكوتين الذي حُرمت منه طوال الفترة الأخيرة، استمتع بالسيجارة كما لو أنها الأخيرة، وأتمتَّع بنظرات «وسام» لي وأنا غير مبالٍ بها، إلى أن انتهيتُ من السيجارةَ ونظرتُ إلى «وسام» طويلًا وقلتُ:

- مِش عايز أتكلِّم، شايف إن مهما اتكلِّمت مش هوصل لنتيجة!

ونظرُت للنافذة.

- أو يِمكن شايف انه مش وقته.

نظرَت لي «وسام» في خيبةِ أملٍ وقالَت بصوتٍ يملؤه الحزن:

- براحتَك.. بس مهما كان الإنسان قوي بييجي وقت بيحتاج فيه إنه يتكلِّم، مش مهم إن الشخص اللي قدامه يقدِّمله حلول، المهم إنه يسمعه وبس، وأنا مستنية إني أسمعَك أوي يا كاتب الأندرجراوند!

***

الفصل الحادي عشر

(ستُطرَد من الجنة كما طُردَ «آدم».. ولكن لا جنةَ لك، دُنيا أو نار، أيهما الأفضَل لك!؟)

***

استيقظَ من نومه وهو يشعُر أن رأسَه كادت أن تنفجِر، وجد أنه مازال نائمًا بنفس ملابسه! فاستيقَظ وتحرَّك بخطواتٍ مُتثاقلة نحو الحمام ليغسل وجهه ويحاول أن يفيق من ليلة أمس، اقتربَ من الطاولة ليجد أمّه بالمطبخ تُحضِّر له الغداء.. الساعة الرابعة والنصف عصرًا.. لاحظَت «زينب» استيقاظ ابنها:

-انت جيت امتى امبارح؟!

كان شاردًا بعقله يُفكِّر في «روان» كعادته، وبدون أن ينظُر لها:

-جيت متأخَّر.

-ليه؟ كُنت فين؟

-ك ك كنت بقرا ا رواية في في الكافيه والوقت خدني.

نظرَت له باستنكارٍ:

-وفين الرواية دي؟

-واحد صاحبي أ أ أخدها مني بل بل بليل يقراها.

لم تُصدِّق ما قالَه، ولكنها حاولَت الانسحاب حتى تفهَم فيما بعد.

ظلَّ شاردًا وهو يتخيَّل ما يفعله، اشتاقَ إليها كثيرًا، اشتاقَ إليها أكثر من أي وقتٍ مضى، مرَّ ما يقارب العام أو أكثر لم يتحدَّث معها، مَنْ قالَ إن الوقت يُنسي؟ الوقت ما هو إلا تجديد لذكرياته معها.. ذكرياته القليلة بالنسبة لها والتي لا يملك غيرها بالنسبة له، كأنها اخترقَت كل شيء داخله، كأن روحه أصبح محفور عليها اسمها، متى تعود! ومتى يعود! يُريد أن يراها للمرة الأخيرة، مرةً واحدةً ستشفي ناره، لم يُلاحظ أن أمه وضعت الطعام على الطاولة! ولكنه نظرَ للطعام بملَلٍ وقام ليُغيِّر تلك الملابس ويرتدي أي شيء آخر.. سيذهَب إليها.. سأصرخ إن استطعتُ وأقول إني لا أحب غيرها! سأخبرها أنها العالم بأكمله بالنسبة لي، وأني لا قُدرة لي على الحياة بدونها.. عامٌ أشبه بالسجن لمن تمنى الحرية، أشبه بأن تشتم رائحة الموت وأنتَ مُقبل على الحياة، أشبه بالقصيدة التي لم تُكملها والأغنية التي لم تسمعها لآخرها... كل شيء مسجون ومُميت يا «روان».. كل شيء!

يرتدي ملابسَه سريعًا، وينزل ويُغلق الباب خلفه بدون أن ينطِق.. «زينب» كالعادة تمسَح دموعَها مما ترى وتصمت!

وضع تلك السماعات الكبيرة في أذنه، وبنطلونه الأسود والتشيرت الأسود، ونظارته التي أصبح لا يرى بها من كثرة الدموع التي أحرقَت وجهه، يمشي يُفكِّر، وقلبه يُحركه كما يشاء، في كل وقتٍ كنتُ أشعُر بها بجواري، لمَ عامَلتني بقسوةٍ! لمَ أذلَّتني! أسئلةٌ كثيرة لا أعلم لمَ أفكِّر بها! وصل قُرب بيتها لينظر للسور الذي وقع من عليه، يُحاول أن يُكرِّر نفس الجنون ويقترب من السور ويقفِز، ليجِد أن جسده استطاع التسلُّق بسهولةٍ! لم يعُد ذلك الضخم، جسده أصبح لينًا ونحيفًا، جلسَ على السور مُباشرةً أمام النافذة الخاصة بغرفتها!

لم تظهَر، الغُرفة مُظلمة.

ظلَّ منتظرا ما يقارب الثلاث ساعات، يُدخِّن بشراسةٍ، ظلَّ يدعُو أن يراها مُجدَّدًا رغم أنه كان يخشى أن يراها، وبداخله كان يتمنى ذلك!

ظلَّ حتى مرَّت الساعة الرابعة ولم تظهَر بعد! لم يستطِع أن يتمالَك نفسه وأجهشَ في البُكاء، وكأنَّ الله يعاقِبه على أخطاء لم يقُم بها، وقفَ وتحرَّك من على السور ليرى صديقَتها، وهي تدخُل منزلها ويجلس مرةً أخرى عسى أن تظهَر... ظل مُنتظرًا ساعة أخرى، حتى خرجَت صديقتها ولم تظهر أيضًا.

خمس ساعاتٍ كاملة أحرقَ فيهم ما يُقارب علبتي سجائر، كانت أعصابه تشتد وقلبه يخفق بشكلٍ لا يُحتمل، ودموع حسرته واشتياقه وصمت.. صمتٌ يقتُل أوتارَ قلبه بمنتهى البرود!

وقف وعلامات اليأس واضحة عليه، وتحرَّكَ على السور، كان يتحرَّك بخفَّة، لم يقع تلك المرّة! ظلَّ يركُض على السور إلى أن سمِع صوت القطار، وبدأت تظهر تلك الهزات الأرضية البسيطة، وقدمه أفلتت ليسقط مرةً أخرى على بعض أكياس الزبالة! التي جعلَته لم يتأذَّ، وقفَ سليمًا ليس به شيء! رحلَ وهو يضع السماعات في أذنه، رحل وهو يعِدها أن يراها مرةً أخرى.

لم يشعُر كم مشيَ حتى تفاجأ بأنه يقف أمام بيته الثاني، مكان يُحاول أن يقتل «روان» بداخله ولو قليلًا، ينظُر لساعته ليجدها الثانية عشرة منتصف الليل! يدخُل البار، لم يجِد تلك الفتاة التي تعوَّدَ أن يراها في كل مرة، جلس وحدَه، وعرفَه النادل وأحضر له كأسًا من الويسكي بدون أن يطلُب حتى!

أتت فتاةٌ تبدو أنها أحد فتيات الليل، واستأذنَت أن تجلِس، نظرَ إليها وهزَّ رأسه إيجابًا في تردُّد.

كانت مُتوسِّطةَ الطول، تمتلك جسدًا يُشبِه جسد (الراقصة فيفي عبده) أو ما يسمونه بالكيرفي، وعيونها بنيّة، وشفتاها كبيرتان قليلًا، ويُغطِّيها الروج الأحمَر، وعيونها واسعة، وتيشيرت خفيف يُظهر أجزاءً من صدرها، وبنطلون فيزون يُظهر كل شيء... اقتربَت منه، جلسَت بجواره وبدأت تحك بجسدِها فيه، وهو يُحاول أن يُبقيها بعيدةً، حتى شعرَت أنه لا يُريدها، حتى أخرجَت من صدرها

سيجارة حشيش وأعطتها له، وقالت له:

-جرَّب دا كدا.. هتطِير.

أخذها في تردد:

-شُكرًا.

لفَّت ذراعيها على كتفه حتى تُقرِّب صدرَها منه وتُخبره:

-وانتَ بقى يا عسَل اسمك إيه؟

شربَ الكأس قبل أن يرُد عليها، وشعر ببعض السخونة بجسده فلم يُحاول أن يبعدها تلك المرة.

-أ أ «آدم».

ضحكَت ضحكةً رقيعة:

-هههههههههي وكمان بتهتِه.

سحبَ يديها من على كتفِه، ثم وقف في غضبٍ ليرحَل، تفاجأ أنها أمسكَت يديه بقوةٍ وقالت له:

- خلاص متزعلش.

لم ينظُر إليها ومازال واقفًا وهي مُمسكة يديه وتُكمِل:

-قلتلَك خلاص بقى.. الله!! تعالى بس اقعد جنبي.

استدارَ وجلسَ مرةً أخرى بدون أن ينطِق ولا ينظُر لها حتى.

اقتربَت منه مرةً أخرى، وسألَته بصوتٍ منخفض:

- معاك فلوس!؟

هزَّ رأسَه إيجابًا.

- معاك كام!؟

أخرجَ من جيبه ورقةً بفئة خمسين جنيها.

- إيه دا بس!؟

هزَّ رأسَه إيجابًا.

- بُص هو أنا باخُد في الليلة ٢٠٠ جنيه...

ثم نظرَت إلى عينيه وغمزت له وضغطَت على شفتيها:

- بس انتَ علشان عاجِبني الليلة دي eerf.. ببلاش!

نظرَ لها وهو غير مُدركٍ ما تقول، وكان الكحول بدأ يضرِب عقلَه، ولم يشعُر إلا وهو واقفٌ معها ويذهبان إلى أحد المنازل بجوار البار، ثم يدخُل معها ويخلع ملابسه وهي تخلَع هي الأخرى... حدثَ كل هذا وهو لا يشعُر بأي شيءٍ بتاتًا...

كان بجوارها على السرير وهو يُقبِّلها بشراسةٍ ويُقبِّل كل قطعةٍ بجسدها العاري أمامه وصوت آهاتها تعلو، شعر أنه نسي كلّ شيءٍ في هذا العالم، شعر أن روحه تائهة بداخل هذا الجسد، مُتعةٌ لم يعلَم مُدَّتها، لم يعلَم ما فعلَه، لم يذهب إحساس السُكر إلا وهو نائم عاريًا وجسده مُرتخٍ تمامًا، وهي نائمة على صدرِه عارية، وما إن نظرَ إلى الساعة ووجدها الثالثة صباحًا، حتى وقفَ مفزُوعًا وارتدى ملابسَه سريعًا وتركها نائمةً وأخذ سيجارته يدخِّنها وهو في الشارع ولم يدرِ أنَّها سيجارة الحشيش التي أعطَتها له تلك الفتاة، شعر بجسده كله توقَّف، ضحك بشكل هيستري لعدَّة دقائق قبل أن تهبِط دموعه منه وهو

لا يشعُر بها.. عقلُه مازال يُفكِّر، عقله لم يختَل بعد: في المرة الأولى لتعاطي الحشيش لا يختل عقلك، ويظل ثابتًا، وربما أكثر انتباهًا، جسدك فقُط هو من يكون في حالة هدوءٍ غريبة، والعقل يُحاول استيعاب ما يدخُل الجسد، لذلك لا يشعر بأي اختلال،بل تقوم كل الأنسجة بالتفاعُل للمحافظة على الجسد، لذلك لا تشعُر بالمتعة في المرة الأولى لسيجارة الحشيش.

ظلَّ على تلك الحالة حتى وصلَ للمنزِل، ليفتح الباب بهدوءٍ، ويجد «زينب» تقف أمام الباب وهو يُحاول ألا يظهر عليه أي شيء، يحاول التماسك أمامها وهو ينظر إليها بقلق...

***

كنا نعتقد أن اختياراتنا صحيحة إلا أني اكتشفتُ أن اختياراتنا كانت الكارثة!

اليوم الأربعاء.. مرّت خمسة أيام والتفكير وقلَّة النوم يكادان يفتكان برأس «روان».. تنتظِر الغد بفارغ الصبر، تشعُر أن اليوم لا يمر، دقَّات عقارب الساعة تسمع صوتها بنفس قوة صوت المدفَع، ولكنها لا تتحرَّك!

خمسة أيامٍ والخوف والقلق يقتلانها، خمسة أيامٍ و»أحمد» في كامل إهماله لها، لا يُحدِّثها، وإن كلَّمها فالمكالمة لا تتخطى الدقيقتين، نفدَ صبرها، وكل يومٍ تشعُر أنها غريبة عنه، تشعُر أن حُفرة النار تقترِب منها يومًا بعد يوم وهي عمياء.. في الحب أنتَ ترى النار واضحةً تمامًا ولكن تبدع في تمثيل أنك لا تراها، أو تراها وتركُض خلف مقولة (الحب يصنع المعجزات)!

إذا كانت الدعوات التي طلبتُها مرارًا وتكرارًا لم تتحقَّق.. سيصنع شيئا مثل الحب الخاطئ المعجزات! كم نحن تافهون وصغارٌ عندما نحب.

جلسَت وبجوارها القهوة السادة، والمطر يهبط بقوةٍ وهي تنظُر إلى الشوارع الخالية من الناس، وتمسك هاتفها وتفتح قائمة البحث.. «آدم».. لتجده الاسم

الأول لها في قائمة البحث، دخلَت بروفايله، عالمه الممتلئ بالكآبة، كثيرٌ من الفتيات والمراهقين والشباب ممن يعانون من نفس ما يمر به.. مرَّ الوقتُ وهي داخل صفحته وكل عشر دقائق تتفقده، هل رأى الرسالةَ أم لا.. لأول مرةٍ تقلَق عليه بهذا القدر، لترسل له رسالةً أخرى:

- انتَ فين؟

كانَت تتوقَّع أنه سيرد على تلك الرسالة، وسيرد عليها بلهفةٍ كعادته الدائمة معها.. كانت تنتظِر ذلك العاشِق الذي لم يستطِع أن يفعل شيئا في حياته سوى أن يحبها، ولكي يؤكد لها حبه لأول مرة كتبَ لها! وربما لم يستطع أن يكتبَ لشيء آخر غيرها، كما كان قيس، فلم يعرِف الشعر إلا لأجل عين ليلى.. وهيَ كانت ليلته وحُلمَه وقِبلتَه... ولن أبالِغ إن قلتُ إنها كانت ربَّه!

ظلَّت تقرأ، وتقرأ، وتقرأ، بدون أن تشعُر بالوقت.. ظلَّت تقرأ وتبكي وتحن وتقلَق... أين أنتَ الآن يا «آدم»!؟

لم تشعُر بنفسها إلا عندما ضغطَت (مُتابعة)، أصبحَت ضِمن هؤلاء المكتئبين البائسين الذين أصبح «آدم» يتحدث بلسانهم، هؤلاء الموجوعين حقًا، لم يأخذوا الاكتئاب موضةً ليجرُوا وراءها ويحققوا منها الشهرة والفتيات... وقفَت عيناها عند منشور مكتوب فيه:

(وفي أشدّ حالاتي سُكرًا.. أتذكَّركِ).

(كنتُ أحاول بكلِّ الطرق أن أخبركِ أن حياتي ستنتهي برحيلكِ، كنتُ أنتظِر أي شيء يجعَلني أتشبَّث بالحياة، ولم أجِد غيرك.. وتركتيني وأنا في أشد ضعفي، كنتِ لي كعُكَّازٍ يملكه عجوز تخطى التسعين من عمره ولا يملِك غيره في طريقٍ مُظلِم ووحيد وينكسر العكاز ليسقط العجوز أرضًا ولا يجد ما يُكمِل به، كنتِ كل شيء، وأنا لم أكن شيئًا بدونكِ).

(وأنا مازلتُ أتنفَّس على أمل عودتكِ لي).

كانت تقرأ كل هذا وعيناها تملأ بالدموع التي تُحاول أن تكتمها.. إلى أن وصلَت لها رسالة من خطيبها «أحمد» على الواتس آب:

-حبيبتي، مسافِر بكرة شُغل واجتماع مهم لازم أكون موجود فيه، وهقفل الفون.

قرأَت الرسالةَ ولم ترد عليها إلا بعد عشر دقائق وهي تتأكَّد أن الرسالةَ كانت صحيحة:

(خطيبك بيخونك)!!

وكتبَت:

-تِرجع بالسلامة.

ارتمت على سريرها وهي تدعو وتتمنى أن ما سيحدُث غدًا كذبا أو كابوسا تعيشه وتستيقِظ منه، وعقلها لم يرحمها، ظلَّ يرسم تلك السيناريوهات التي تزيد الخوف والقلق، يرسم أشياءً تمنَّت ألا تحدُث، تُوهِم نفسها، تُحارب وتُقاوِم وتُحاوِل إيقاف كل تلك المصائب ولا فائدة، تظل تُقاوِم وتقاوم وتقاوم إلى أن أغلقت عينيها بهدوءٍ ودخلت في نومٍ لا تشعُر به.

***

الفصل الثاني عشر

(تلك اللحظة التي تشعُر أن هناك شيئًا ناقصًا.. شيئا لم تنتبِه لوجوده، شيء أخذ منكَ الكثير في غفلةٍ ولم تشعُر به)

***

انعقدَ حاجباها وظلَّت ترمُقه أمُّه بنظراتٍ قاتلةٍ وهو يُحاول أن يكون ثابتًا، ولكن يخذله قلبه الذي يخفِق بقوةٍ والعرق على جبينه، كانت تنظُر له بقوةٍ وهو يُحاول أن يكذِب، ولكن لسانه كان عاجزًا تمامًا عن الكلام حتى، حاول تجاهلها بالدخول مباشرة إلى غُرفته، فذهبَت خلفَه مُسرعةً، وبصوتٍ عالٍ:

-كُنت فين؟ وجسمَك بيتنفض كدا ومش قادِر تقف؟

لم يلتفت إليها وهو يتحدَّث بصوته المتقطِّع:

-كنت قاعد في كافيه شويَّة والوقت خدني.

أمسكَته بقوةٍ عندما وجدَته يتحرَّك بسرعةٍ نحو غُرفته وأوقفته، فاستسلَم لها ووقف مستندا على الحائط، وبدأت تنظُر له وهو يهرُب بعينيه منها:

-وانت من امتى بتوصَل بيك الحالة إنك ترجع أربعة الفجر وجسمَك مش قادِر يصلب طوله؟!

حاولَ أن يُبعِدها ولكنَّها أمسكَته مرةً أُخرى بقوةٍ أكبر، وأصبح صوتها عاليا لدرجة أنه تأكَّد أن باقي سكان العمارة قد سمعوا!

-قولي ريحة بُوِّك كدا ليه؟ إنت شارِب صح؟

لم ينظُر لها ونظر للأرض وقال:

-لا مش شارب.

-وكمان بتكدِب!!؟

صفعَته صفعةً قوية، وما أن صفعَته حتى سقطَ على الأرض وفمه ينزِف، صفعة كانت كالبرق على قلبها.

وضعَ يده على فمه يتحسَّس الدماء، ومسحَها سريعًا وقد توهَّجت شرارة الغضب في عينيه ووقفَ ونظر إليها بغضبٍ صارخا:

-أيوه كنت بشرَب.. خمرة وحشيش.

وما إن قال تلك الجملة حتى صفعَته مرةً ثانيةً وبدأت تنهره وهي تضربه بكلتي يديها على وجهه وبشدة:

-أبوك كان معاه حق لما قالي إن دلعي هو اللي ممكن يبوَّظك.. كُنت غلطانة علشان كل ما يُقف ويعلِّمك كنت بقف قصاده وأدافع عنَّك، كنت غلطانة علشان معرفتش أجيب راجل، علشان لما تكسرك واحدة متساويش! تبقى مش راجل.

توقَّفت عن ضربِه من شدة التعب الذي أصابَها، وبدأت دموعُها تنساب من عينيها وهي تحاول أن تتماسَك.. كانت تقول هذا الكلام وقلبها يتمزَّق من الداخل.. كانت تشعُر أن روحها تخرُج منها تدريجيًا وهو يقف أمامها كل ما تملك.. كارثة عندما يكون كل ما تملكه وما يُضعفك ولا تستطيع التخلّي عنه!

نظرَت إليّ وهي مازالت في غضبها:

-اخرُج من البيت، روح كمل سهراتك مع الناس اللي بتشرَب وتحشِّش معاهم..

روح ومتدخُلش البيت دا تاني إلا لما ترجَع وتكون راجل.

وسحبَته من ملابسه خارج الشقة وهو مُستسلِم تمامًا لما يحدُث، كان عقله متوقّف تمامًا عن التفكير، كان يشعُر أنه في حلم وسيستيقِظ منه عاجلًا أم آجلًا.. كان يرى أن كل هذه مجرد هلوسَة من تأثير سيجارة الحشيش التي بدأ مفعولها متأخرًا، كان يعتقِد أن كل ما يحدُث هو مجرَّد دُعابَة سخيفة من عقله، قبل أن يجِد نفسَه أمام باب العمارة التي يسكُن بها، لم يشعُر بنفسه ولا قلبه.. ماتَ كلّ شيءٍ فيه مُنذ رحيلها، أعلنَ حدادًا دائمًا، حدادًا إلى أن تعود، أو يموت!

ظلَّ يتحرَّك في الشوارع ولا يعلم إلى أين يذهَب! ولا يعلم أي شيء والنهار يُشرِق وتبدأ الإسكندرية في الازدحام، ظلَّ يتحرّك وهو سارح بعقلِه فيما حدَث، لا يُصدِّق حتى الآن أن أمه طردَته من المنزل!

كيف تأتي من أمي!! أسئلةٌ كثيرةٌ لا إجابةَ لها، يتمنى أن تكون خيالات، تفاجأَ أنه وقفَ أمام بيت صديقه مروان.

وكانت الساعة السابعة صباحًا، دخل المنزِل ووجدَ البواب مازال نائمًا، صديقه الذي لا يعرف غيره.. اشتقتُ إليه، ربما قد يفهَمني، ربما قد يُساعدني بما أمر به، لا أملك إلا هوَ.. صعد السلالم حتى وصلَ الدور الخامس، طرقَ المنزل مرَّتين ولم يفتَح أحد، وقفَ قليلًا وفكَّر في العودة، ولكنه طرقَ للمرة الثالثة حتى فتحت أمُّه وهي تنظُر إليه بعينين ذابلتين والأسود يغطي لبسها بالكامل...

- ازيك يا طنط أنا «آدم» صاحب «مروان».. هو فين!؟

هبطَت من عينيها دموعًا حاولَت مُسرعةً أن تخبئها:

- انتَ لسه فاكِر يا «آدم»؟!!

بدأ التوتُّر والقلق والخوف يمتزجان به، شعر أنه غير قادر على الوقوف على

قدميه، وبصوتٍ مُتقطِّع ممزوج بقلق يكاد يقتله:

- يـ يـ يعني إيه يا طنط؟

ردَّت عليه وهي تُحاوِل أن تتمالك نفسها من انهيارها في البكاء:

- «مروان» اتوفى من شهرين يا «آدم».. حادثة قطر وهو رايح كلّيته في طنطا..

قالَتها وهي تستدير لتدخُل البيت، وأكملَت:

- اتفضَّل يابني.

وقفَ «آدم» كأنّ صاعِقةً نزلَت عليه.. وقف كدجال آخر الأرض عندما يرى عيسى.. وقفَ وشعرَ أن عقلَه يكاد ينفجِر وضربات قلبه تتباطأ وعينه تُحاول أن تغلق، ثم نظرت السيدةُ إلى الباب فلم تجد «آدم».. اختفى كما يختفي الملح في الطعام، اختفى كأشياءٍ كثيرة تختفي بدون أن نشعُر، اختفى كما يختفي صديقٌ لنا لم نتحدَّث معه منذ فترةٍ ويموت دون أن ندري.. أصبحتَ مغيبًا كثيرًا عن العالم يا فتى، مغيبًا لدرجة أنك لم تعُد تستطيع أن تُكمِل وحدَك، ولن يقترب أحدٌ منكَ لبؤسِك وكآبتك، من يترُك السعادة ويبحَث عن بائسين مثلَك! من يأتي لشخص مكسور ومُحطَّم، شخص يُشبه الأموات، من توافق على جثة، وأي صديق قادر على حملها!

لم يدرِ بنفسه إلا وهو جالس في المكان الذي أصبح لا يملك غيره الآن (بار الشيخ علي).

الساعة السابعة صباحًا، لا يوجد أحد بالبار غيره، يجلِس وينظر إلى الكأس أمامه، وآخر عشرين جنيه في جيبه... يبكي في صمتٍ، تهبِط الدموع من عينيه وهو صامت، ينظُر للكأس ويُحاول أن يهرب.. اشتقتُ إليكَ كثيرًا يا صديقي! الذي لم أملِك غيرَك، اشتقتُ إلى محادثاتنا التي لم تكُن تنتهي، اشتقتُ إلى تلك الأوقات التي كنا بمجرد نظرةٍ نفهَم ما نريد أن نقول، كأن كل شيءٍ شاركتَني

به أصبح بائسًا مثلي، أو ميتًا مثلك، كيف غفلتُ عنكَ كل هذه الفترة! وكيف تركتَني وحدي!

رحمَك الله.. لأنكَ الآن في رحمته، اشفَع لي يا صديق العمر..!

شعرتُ بيدٍ ناعمة تمسَح دموع عيني، ونظرت إليها لأتفاجأ بـ»ميرنا»!! خلعَت الجاكت الذي كانت ترتديه وجلسَت بجواري على البار، ووضعت يديها على كتفي، لم تكُن مخمورةً أو بها أي شيء يُسكِرها، كانت غير كل مرةٍ أراها فيها!

- مالَك؟

شعرتُ ألا فائدةَ من الكلام، ولكن لأول مرةٍ أشعُر أن الكلامَ هو ملجئي، لأول مرةٍ أريدُ أن أواجه لا أهرب، أريد أن يُصبح كل هذا مجرَّد حلم سخيف سأستيقِظ منه وأنا طالب في جامعتي وأمي تحتضنني كلّ يومٍ و»روان» تنتظِر الليل لأغازِلها وأحكي لها كم أحبها، و»مروان» صديقي المُزعِج الذي دائمًا ما يُفسد عليّ إنجازاتي بمزاحه الرخيص..! أريدُ أن أستيقِظ، لا أحب أن أظل هكذا كثيرًا! سأتكلَّم وأنا أعلم أن جرحي سيتَّسِع ويتعمَّق، وسأنزف بكثرة، وسأبكي، كما لم أبكِ من قبل!

- صاحبي مات ومكنتش أعرف، وأمي طردتني من البيت علشان كُنت سكران.

نظرَت إليّ «ميرنا» وهي تُشعِل سيجارَتها المارلبورو وتُعطيني واحدةً لأحكي بعُمق أكبر، وظلَّت تسمع كل ما أقول عن أمي وصديقي و»روان»...

الفتاة التي لمستُ النجومَ معها، وتفاجأتُ في لحظات أني في الأرض وحدي، مرت ثلاث ساعات وأنا أحكي فيها ما حدث لي منذ عامٍ وشهرَين، مرَّ الوقتُ بطيئا للغاية، والكلام لا ينتهي، رغم أني تكلَّمتُ ولكنني أحسستُ أن صخرةً ضخمة قد أزحتُها عن صدري، ولو لبضع دقائق! وقفَت «ميرنا» لتحاسب على الكأس الذي شربته وهي تنظر إليّ:

-يلا.

لم أفهَم ما تُريد:

-يلا إيه مش فاهم!

- هو إيه دا اللي مش فاهم، دلوقتي أمك كرشاك من البيت، وصاحبك اللي المفروض كُنت هتبات عنده وصديق عمرَك مات، وحالتَك زي الزفت، والدنيا ضارباك مية جزمة على دماغك، قوم تعالى هتبات عندي.

ربما شعرتُ بسعادةٍ داخلية ولكنَّها لم تظهر على ملامح وجهي.

-مش خايفة مني؟

لم تنظُر إليّ وهي تفتَح باب البار الأصفر:

-الخوف بيكون أوّل مرة بس، بعد كدا بتشوف إن الخوف دا مكنش يستاهِل التوتُّر والقلق اللي احنا عملناه في الأول!

خرجتُ وراءها واتبعتُها ولا أعلم إلى أين ستذهَب بي.

-شكرًا يا «ميرنا».

لم ترُد عليّ، وأشعلَت سيجارتها وأعطتني واحدةً والصمتُ يُخيِّم علينا طوال الطريق!

مرَّ وقتٌ طويل في هذه الحالة التي تُشبِه المحيط الهادئ الذي يحتوي الكثير من الجُثث والتاريخ المشوَّه بالأكاذيب في باطنه، ورغم ذلك (هادئ)، هادئ إلى أقصى حد، هادئ للدرجة التي تُشعِرك أن الفضاء قد صمت، وعقارب الساعة تتحرَّك بدون دقَّاتها المقلِقة، والسكون قد احتل الأرض، هدوءٌ مُقلِق، تلك المرحلة اليائسة التي تقتنِع فيها تمامًا أنك هُزِمتَ! لا يوجد ما يُنصِفك،

ولا يوجد ما يستحق البقاء، تعيش كل يومٍ كسابقه، تعيش حياةً تُشبه سكرات الموت! من نهار هادئ وصامت إلى ليلةٍ تأتي بها الذكريات لتُعلن الحرب التي لطالما هُزمت بها! الحرب التي رجوتَ كثيرًا أن تُرحم أو تموت.. ولا تنال أيًا من الاثنين! وصلنا يا صديقي إلى أقصى حدود البؤس!

لم أتعجَّب عندما فُتح الباب بعد ثلاث دقاتٍ مُتواصلة وأنا أجلس أقرأ روايةَ (مائة عام من العزلة)، لم تكُن طرقات «وسام» التي اعتدتُها، اقترَب مني طبيبٌ ممتلئ الجسد، قصير القامة، أنفه عريضَة ووجهه دائري ضَخم وعيونه خضراء وكتِفه الممتلئ بالدهون، كانت تُغطِّيه الدهون من كل اتجاه، اقتربَ ومعه «دكتور عصام» وفتى من الممرضين معه المنشار الطبي، ليقتَرب من قدمي وأنا أنظُر لهم بلا مبالاة ويتكلَّم معي ذلك الضخم بدون أن أستمِع إليه، وأُكمل قراءةَ روايتي ويبدأ ذلك الممرض بفك الجبس، لم أشعُر بأي ألَم، لم أعُد أشعُر من الأساس، ولكن كل ما كان يُزعجني ذلك الصوت المُزعج الذي يوتِّرني كثيرًا أثناء قراءتي، انتهى من عمله ونظر لي «دكتور عصام» طويلًا وأنا أتجاهله تمامًا، كان كل تفكيري بـ»وسام»! مرت خمسة أيام وأنا أرى بوجهه تلك النظرات المخيبة التي فقدَت بها الأمل في أن تفتح صندوقي، رغم ذلك لم تتركني، تضاعف مجهودها نحوي، حتى إنها نسيَت أنها مازالَت طالبة، وأصبحَت بجواري بدون تقرير، لا تكتب شيئا، تجلِس فقط بجواري، تُحاول أن تُخفِّف عني، بكلِّ الطُرق الممكنة وغير الممكنة...

تنظُر لي ولتلك الحالة التي ستُعالَج جسديًا من الهيروين، وسيظل بهذا الغموض والاكتئاب، وسيعود مرةً أخرى لإدمانه.

أتذكَّرها وأنا أحاول أن أكون غير مبالٍ، طبيبة ومن حقِّها أن تفعَل هذا، ولكن أنتَ! بمَ تُفكِّر! لمَ هي؟! عقلي يُراودني كثيرًا وقلبي يحِن من جديد! اعتقدت منذ سنوات أنه مات ودُفِن، لمَ أسمَع نبضاته الآن؟! لعَن الله كل المشاعر التي تجعلك صلصالًا تشكل حسب ما تشعر!

مرّت حوالي ساعة قبل أن يختفي «د. عصام»، وأنظر إلى الطاولةِ لأجد أحد الشرائط، وقفتُ لأختبِر قدمي بعد خمسة وثلاثين يومًا بدون حركةٍ، اتجهتُ مباشرةً إلى ذلك الشريط لأفتحه، اقتربتُ منه وشعرتُ أن قدمي تتحرَّك في خفةٍ وسُرعةٍ، عقلي يشعُر بارتياح، جسدي مُتلهِّف لهذا الشيء الذي لم أفتحه إلى الآن.

اقتربتُ منه ووقفتُ أنظُر إليه، وابتسامةٌ بها ارتياح كبير.. هيروين!

كيف وُضعَ هنا! مَن أتى به! كل هذا لا يهم، المهم أنه موجود، سمعتُ خطواتٍ قادمة ناحية غُرفتي وتقترب، والصوت يزداد قوةً، لولا حاسة السمع القوية لديّ لقلتُ أنه أي شخص، ولكني أعلَم حركةَ «وسام» جيدًا وحذاءها ذا الكعب العالي الذي يُصدر هذا الصوت القوي.. أخفيتُ الشريط مُسرعًا ووضعتُه في جيبي.

يُفتَح باب الغرفة لتنظُر إليّ وأنا مازلتُ أبتسِم.

-صباح الخير يا سيادة الكاتِب.

-صباح النور يا «وسام».

-مبروك فَك الجبس.

حرَّكتُ رأسي إيجابًا واستدرتُ لأسحب كرسيا وأعود لقراءة الرواية...

-رواية إيه دي؟

قالَتها «وسام» وهي تطلُب من الممرضة أن تأتي بالإفطار من الهاتف.

-(مائة عام من العزلة).

-حِلوة؟!

-تفتِكري رواية واخدة جايزِة نُوبل مش هتكون حلوة!؟

-يبقى أكيد حلوة، طيب وصَلت لفين؟

نظرتُ ولا أعلَم أين توقَّفتُ، ولكن عيني وقعَت على تلكَ الجملةَ التي كادَت أن تذبَحني مُجدَّدًا: (كان يمضي مع التيار بلا حُب ولا طموح)

دخلت الممرضةُ لتضع الإفطار في صمتٍ وترحَل، وتأخُذ منه «وسام» الرواية وتُغلِقها ليأكل، جسده يحتاج الغذاء الكافي ليستعِيد توازنه بشكلٍ أكبر.

تناولَ الطعامَ بدون أن يتحدَّث بكلمةٍ، ليدخُل عليهما «د. عصام» بدون أن يطرُق أو أي استئذان:

-د.»وسام»، بعد إذنك عايز حضرتك.

نظرت له في غرابةٍ شديدةٍ وأنا خالٍ من أي تعبير. ذهبَت «وسام» معه وأنا مازلتُ عيني معلَّقة عليه، وأسأل نفسي، ماذا تريد مني يا «عصام»!! ذهبَت د.»وسام» معه وهو يتقدَّمها ليدخلا غرفة «د. عصام» ثم يطلُب منها الجلوس.

-خير يا دكتور في حاجة؟!

-عاملة إيه مع حالتِك؟!

-لسه يا دكتور بحاول، بتعامِل مع شخص غريب، كإنه بيقرا اللي في دماغي وبيصدّه في ساعتها! بيخاف يتكلِّم، ساكِت بس بلاحِظ في صوته أحيانًا شوية تهتهة!

-أنا شايف إن حالته كدا تمام ويخرُج، هيجيبلنا تعَب قَلب وخلاص، وبعدين دا خلَّص علاجه بنسبة ٨٠ ٪.

-٨٠ ٪ مش كتير يا دكتور، اللي زي «عُمر» لازم يكون ١٠١ ٪ ، الشخص دا

عبقري بمعنى الكلمة، دا أنا في بنات صحابي ماشافوهوش وكانوا بيكرشوا عليه من كتاباته.

ضحكَ «د. عصام» باستهزاء:

-يا بنتي هو لسَّه في حد بيقرا!

انعقَد حاجباها في غضبٍ وهي تنظُر إليه:

-في كتير كمان.

-طيب متتعصَّبيش كدا، أنا كنت عايزِك في موضوع تاني أصلًا.

-إيه؟

-د. «وسام»، أنا مُعجَب بيكي، وعايز أتجوِّزك.

شعرَت «وسام» في تلك اللحظة بقبضةٍ غريبةٍ في قلبِها، لا تعلم إن كانت قبضةَ فرح أم قلَق، أم لكونها لم ترتبِط من قبل! كانت ترفُض فكرة الارتباط، كانت ترى أن الارتباط يجب أن يكون كما في مُخيِّلتها، حتى لو وصلَ العمر بها للخمسين... شعرَت بحرارةٍ تخرُج من جسدها ولسانها أصبحَ ثقيلًا من القلَق المفاجئ.

أكملَ «د. عصام»:

-إيه رأيك يا «وسام»!؟

حاولَت استعادة توازُنها سريعًا، وهي تأخُذ نفسًا عميقًا بهدوء:

-ممكن نخلِّي الكلام دا بعد ما أقدِّم تقريري في حالة «عمر» لو سمحت يا دكتور؟

-تمام، بس أنا مش بصبر كتير، عايز أقعُد مع والدِك في أقرب وقت.

-إن شاء الله يا دكتور.

قالَتها بابتسامةٍ وخرجَت مسرعةً لتُجهِّز حقيبَتها وتذهب للبيت، تذهَب إلى حضن الكون الذي لا يضيق أبدًا بها.. للأب!

***

الفصل الثالث عشر

(كل شيء مُخيف يا صديقي، وأكثرهم خوفًا ذلك الطريق المُظلِم الذي تمشي فيه وأنتَ تعلَم أنك لن تعود).

***

يجلسُ في شقةٍ لا يُوجد بها سوى غُرفة واحدة بها سرير لا يسع سوى اثنين من الحجم الصغير -حمدًا لله أنه خسر وزنَه كله- ومطبخ صغير لا يُدخل جسدَه سابقًا، وحمام بدون باب، ثلاجة قديمة نوعًا ما ولكنها مازالت تعمَل، وسجاد نضيف وطاولة صغيرة بها مقعدين، ودفاية في الصالة الصغيرة، ومروحة لا تحتاجها في ذلك البرد القارس! من قال إن اسكندرية مُمتعة في الشتاء!؟

-أي تريقة أو أيا كان اللي هتقولُه خلِّيه لنفسَك أو تقدَر تمشي.

قالَتها وهي تُغيِّر ملابسها أمامي ولم تنتظِر إلى دخولها للغرفة حتى، وبقيَت أمامي بالملابس الداخلية، وسحبَت الشنطة لتُخرج بيجامة ورديةَ اللون لترديها في سرعةٍ، وأنا مازلتُ أقف ثابتًا أنظُر إليها، ولاحظَت هذا ولكنها لم تبدِ أي تعليق.. أخرجَت كيسًا صغيرًا به بُودرة بيضاء، وسحبت المقعد وبدأت ترص تلك البودرة البيضاء كسطور، وتُخرِج أنبوبة صغيرة من جراب هاتفها، وتضع فتحةَ أنفها اليُسرى وتشم بقوّةٍ وتُرتِّب السطورَ مُجدَّدًا، وتشم للمرة الثانية بنفس القوّة، وترتِّبها للمرة الثالثة وتسحَب، ولكن بقوةٍ أقل في تلك المرَّة، وهدأَت تمامًا، وكأن هناك فراغا يحتل عقلها، أصبحَت ساكنةً كأنها شخصٌ يعمَل بشكلٍ شاق لمدة أسبوع ولم ينَم دقيقة! نظرتُ لها وأنا مازلتُ واقفًا ولا أدري ماذا أفعَل، خطر ببالي أن أفعَل مثلها، ولكن كنتُ أتردَّد، ولكن ماذا سنخسَر أكثر مما خسرنا! سحبتُ المقعَد الآخر وجلستُ بجوارها:

-ميرنا!

لم ترُد.. كأنما لم تسمعني من الأساس!

-ميرنا!

هززتُها من كتفها تلكَ المرة لأوقِظها.

-إيه إيه.. عايز إيه؟

قالَتها وهي مُغمضة عينيها وفي حالة غيابٍ شديدة.

-عايز أجرَّب اللي انتي شمّيتيه دا.

-لا غلط عليك انت لسَّه صغير.

-دا على أساس إن العُمر بيجري بيكي مثلًا!

لم ترُد.. اقتربتُ أنا ووجدتُ بعض البودرة في الكيس لم تُفرغهم بعد، وضممتُ ما يوجد على الطاولة بجانب الكيس لأكوِّن سطرا مثلها، وأقرِّب الأنبوبة من أنفي بعض الشيء وأحاول أن أسحب نفسًا قويًا مثلها، ولكن وجهي احمرَّ وعطستُ لمرَّاتٍ مُتكرِّرة ولم أشعر بشيء، اقتربتُ مرةً أخرى ووضعتُ الأنبوبةَ بداخل فتحة أنفي، وسحبتُ تلك المرَّةَ بهدوءٍ إلى أن أخذتُ السطرَ كاملًا، وهنا جلستُ قليلًا أرفع رأسي للسقف.

بعد خمس دقائق بدأ مفعول الهيروين.

تشعُر أنك طائر حُر، روحك تتجوَّل في المكان، وعقلك يُناغم ذلك الحزن برقصاتٍ على الموسيقى الهادئة وبعض الذكريات التي تجدها عديمة النفع، لا مُشكِلةَ منها، شيء أقوى بكثير من أن تفهمه، جسدٌ ساكنٌ وعقلٌ سارح، وروحي تطُوف في الكون! ذلك الإحساس الذي يجعَل أصعب مسائل أينشتاين

ونيوتن تحل بكلمة! شعور أن عقلك قادِر على أن ينظُر لكل شيء على أنه صغير وليس بحاجةٍ لتكبير الأمور، كل شيء بخير، وكلنا سعداء إلى أن ينتهي المفعول!

لا أعلَم كم مضى من الوقت وأنا أجلِس هكذا، ولكني استيقظتُ ولم أجِد «ميرنا» بجواري وأنظر للساعة لأجدها الثامنة ليلًا!

حاولتُ الوقوف بصعوبةٍ وأذهَب للبار، مؤكَّد ستكون هناك، ذهبتُ إليها مُسرعًا، ووقفتُ أمام البار قليلًا لأعدِّل من هيئتي قبل أن أدخُل، دخلتُ بخطواتٍ بطيئةٍ وأنا أنظُر لأجدها جالسةً في مكانها المعتاد، جلستُ بجوارها وابتسمَت لي وهي تنفُث دخان سيجارتها:

-نِمت كويس؟

-مِش عارف.

-أنا سيبتَك ونزلت علشان تاخُد راحتَك.

- شُكرًا.

أخرجَت سيجارةً من عُلبتها وأعطتها لي.

- هاتله فودكا علشان السقعة دي.

قالَتها للنادل.

-أأ أنا معييش فلوس!

-اعتبرني عازماك المرادي بس.

-بُكرة هس هسحَب فلوس من البنك وه هديلِك فلوسك.

لم ترُد وأكملَت استماعها لأغنية الجاز، وتحديدًا كانت أغنية (to the moon fly me)، كانت مُندمجةً بشكلٍ كبير مع الأغنية وأنا أنظُر لها.

(fly me to the moon and let me dance among the stars)طِر بي إلى القمر.. ودعني أرقُص بين نجومه.

أشعلتُ السيجارة التي أعطَتها لي «ميرنا».. وأنظُر إليها وأبتسِم فقط، إلى أن أتى من وضعَ يده على كتفي و همس في أذني:

-كُنت أسَد ليلة امبارح.

انتفضتُ من جلسَتي عندما سمعت تلك الجملة! ابتلعتُ ريقي بصعوبةٍ وأنا مازلتُ أنظُر لـ«ميرنا»، ولم أتكلَّم، صمت تام.. إلى أن نظرَت إليّ «ميرنا» وتتفاجأ بتلكَ السيدة التي تقِف خلفي، وتُخبرها بأنه لا يملك مالًا، ولكنها ظلَّت واقفةً، و«ميرنا» تنظُر إليها وتنظُر لي باستغرابٍ حقيقي.

- الزبون دا الوحيد اللي مش هاخد منه فلوس.

نفثَت «ميرنا» دخان سيجارتها وهي تنظُر إليها وتبتسِم باستهزاء:

- هاها ليه بقى إن شاء الله!

- بيني وبينك يا أوختشي قضيت معاه ليلة ولا ألف ليلة وليلة، حاجات كدا متحسيهاش غير مع عنتيل المحلة!

وضحكَت بخلاعةٍ لتُسمِع كل من في البار.

نظرَت لي «ميرنا» ومازالت على وجهها تلك الابتسامة:

-الله! دا انت طلِع ليك في الشقاوَة أهو، أمال إيه بقى التهتهة، وأمي طردِتني والحوارات دي!

- يقطَعني!! اوعى تكُون دي مُزِّتَك يا «آدم»!؟

نظرَت لي «ميرنا»:

- رُد على الحاجة.

كان لساني عاجزًا، لم أرفع عيني عن «ميرنا».. وسأكون كاذبًا إن قلتُ أنني لم أشتاق لذلك الجسد الذي هو السبب الأكبر في طردي ليلة أمس من البيت! تلك الأنثى التي لم أعرف اسمها حتى.

-«ميرنا».. أنا أنا.. أنا معرفهاش.

-نعم يا الدلعدي!؟

قالَتها تلك الأنثى بغضبٍ يمتزج بأسلوبٍ من الشرشحة:

-اسمها إيه؟

قالَتها «ميرنا» وهي تُطفئ سيجارتها.

-اسمي هي...

قاطعَتها «ميرنا»:

- هششششش.

-هو إيه دا اللي هِش يعنيا! دا أنا أمرمطِك هنا وأفرَّج عليكي أمة لا إله إلا الله!

نظرَت تلك السيدةُ التي تجلس بذلك الركن في البار، ووقفَت واقتربَت منّا حيثُ هبطت «ميرنا» من كرسيها لتواجه تلك الضخمة بالنسبة لها وهي تُغلق السويت شيرت الزيتي الخاص بها... اقتربَت تلك السيدةُ من «ميرنا»:

-في حاجَة يا «ميرنا»؟

-شوفي عربيات الكارو اللي بتشغَّليها عندك.

نظرَت لتلك الأنثى بغضبٍ:

-«هيام».. مش قولنا مش في مشاكل تاني هنا!؟

-مهي هي اللي بتقِل أدبها عليا.

اشتدَّ اتساع عين تلك المرأة وبغضبٍ ونبرة تحذير:

-«ميرنا» هنا هي الشغل! يعني كلامها كله حاضر، فاهمة؟

نظرَت لي:

-فاهمة.

نظرَت لي تلك المرأةُ وكأنها رأتني من قبل:

-جديد هنا؟

-ب بقالي أسبوع.

-شرَّفتِنا وموش يتكرَّر موقِف «هيام» تاني.

-ش ش شكرا.

نظرَت لي «ميرنا» باشمئزازٍ قبل أن تترُك المكان وترحل وأنا خلفها.

-م م «ميرنا».. ا اسمعيني لو سمحتي.

لم تعِرني اهتمامًا وتحرَّكَت بخطواتٍ سريعة.

-«ميرنا».. عا عا عشان خ خاطري.

لم تُعرني أي اهتمام وأشعلَت سيجارتها وهي تتحرَّك والمطر يهبِط بشدةٍ، لم ألاحظ أن الشارع فارغ وجميع المحلات مُغلَقة إلا قليل.

شعرتُ ألا أملَ في أن تنظُر لي، وهبطَت دموعي بدون أن أدري مثل كل مرة.

-«ميرنا».. دا دا اليوم اللي أ أمي كرش شتني فيه! «ميرنا» أ أنا معرفش حد غي غيرِك! أنا معملتش حاجة.. أنا عايز أ أ أبقى معااكي وأدفع أي فلوس، «ميرنا» م م متسبنيش!

وقفتُ أنا ودموعي تمتزِج بقطرات المطر القويّة، وهي تتحرَّك وبعد خطوتين وقفَت ما يُقارب الدقيقتين واستدارَت ونظرَت لي:

-انت أهبل؟ الدنيا بتشتي واحنا واقفين قدام البيت وانت بتتكلِّم هنا، يلا نطلع احنا غرقنا!

لم ألحَظ أننا وصلنا للمنزل، أو منزل «ميرنا»، شعرتُ بسعادةٍ وأنا أمسح وجهي من ماء المطر وأتقدَّم لأصعد معها السلم للدور الثامن قبل الأخير أو قبل السطوح...

دخلَت المنزل، ودخلتُ خلفَها مباشرةً، وخلعَت ملابسها المبتلَّة وأنا أقف كعادتي، خلعَت كل شيءٍ إلا قليلا من الملابس الداخلية، ولكنها لم تلبس بيجامةً كما توقَّعت، بل اقتربَت مني وهي تنظُر لي، وأمسكَتني من البلوفر المبتل:

-كوني بفهَم الناس بسرعة فـانت النهاردة كُنت هتموت على هيام، كان حلو إنك بتخطَف نظرات لفخادها من غير ما حد ياخد باله.

-انتي خ خ خدتي بالك!؟

-اقلَع!

بمجرَّد أن خلعتُ ملابسي التصقَت بي تمامًا وقبَّلَتني في شراسةٍ فحملتُها واتجهتُ بها إلى السرير وأنا أنهَش جسدها وهي تُمسِك بي... ليلة تعبتُ بها أكثر من ليلة «هيام»، ليلة شعرتُ فيها بالمعنى الحقيقي أن تكون في حضن أنثى، وأي أنثى، أنثى تُشبه فتيات طروادة غجرية بكل ما تحمله من معنى، «ميرنا» أسطورة رغم قصر قامتها وجسدها الذي لا يملك إمكانيات «هيام»، ولكن ليلة «ميرنا» حطَّمَت لي تلك النظرَة، ليس الأمر بالجسد، هناك ما هو أكثر من ذلك.

كنا منهمكين في علاقة دامت ما يقارب الساعتين والنصف، ونمنا على ظهرنا ونحن ننظُر للسقف، أخرجَت «ميرنا» من الكوميدينو بجوارها سيجارةَ حشيش وأشعلَتها وتشاركناها سويًا، في المرة الأولى لم أشعُر بتأثيرٍ كامل للحشيش، أما في تلك المرة جسدي كان في أقصى استرخائه، وعقلي يُفكِّر أيضًا، ولكن خدر قوي يجتاح جسدي.. ظللتُ أنظُر للسقف وأنا أناولها السيجارة.

- عندِك كام سنة يا «ميرنا».

- واحد وعشرين

- أومال إيه بقى صُغيَّر بتاعت امبارح؟

- الصغير والكبير دا مبيكونش سِن يا «آدم»، بتكون بالخِبرات، تفتكِر ليه أحيانًا بتلاقي بنات مُرتبطين بأصغَر منهم، بيكونوا شايفينهم سابقين خبرات عنهم، دايمًا العُمر بيتقاس بالخبرات، فُكك من السن.

-سن ولا سنان!

-لو قُلت أي ألشة تاني هطرُدك من البيت.

-حاضر.

وصمتَ لمدة دقيقةٍ وضحكنا بشكلٍ هيستيري سويًا، ضحكنا ولم نعرِف لماذا! ضحِكنا إلى أن شعرنا بسعادةٍ غامرة، ضحكنا من أثر ذلك الحشيش الذي لأول مرةٍ أشعُر به، ضحكنا حتى هدأنا وكل منا غطَّ في نومٍ عميق، عاريان مغطيان ببطانيةٍ ثقيلة...

مرَّ أسبوعان عليها أشبه بقرون، كل يومٍ يمر يضغَط الكثير على طاقته وأعصابها.. تشعُر أنها قد تموت إن رأتهُ في حضن غيرها! رسالةٌ كاذبة، تتمنى هذا طيلَة الوقت، إلى أن أتى نهار الخميس.

الساعة الثالثة عصرًا.. لم تَنم، وهو مُهمِلها طيلة هذين الأسبوعين، رسائل قصيرة تنتهي بسردِ ما حدثَ طيلة اليوم بطريقة مُختصرَة، ثم يذهب ولا يُهم هي.

ارتدَت ملابسها سريعًا بدون أي مواد تجميل، تضعها على وجهها لتذهب لجامعتها لترى النتيجة، أي شيء يُضيِّع الوقت، وجدَت أمّها تجلِس أمام التلفاز وتنظُر لها.

-ماما أنا نازلة أجيب النتيجة وهتأخَّر شوية، هاجي بالليل.

لم تنتظِر ردَّها وأغلقَت الباب بقوَّة.. نزلَت الشارع وكل تفكيرها فيما قد يحدُث اليوم، وصلَت كُلِّيتها لتذهَب لترى نتيجتَها ولم تتفاجأ كثيرًا بالرسوب! كانت تتوقَّع هذا، خرجَت من كُليتها لتذهَب إلى أحد الكافيهات وتجلِس وتضع السماعات في أذنها، تبدأ باستماع الأغنية الفرنسية التي كان دائمًا يُحبها «آدم» (formidable).. ظلَّت تُقلِّب في كتاباته على بروفايله والأغنية تنتهي وتعاد من جديد، تُقلِّب في كل ما كتَب في فترة غيابها، ترى أن رسالتها لم تظهر أنه قرأها إلى الآن، رأت أحد المنشورات القديمة التي لم تقرأها منذ أن رحلَت عنه وتركته وحدَه بدون أي طوق للنجاة.

(رحيلكِ لم يكُن عاديًا، أفتقد كل شيء، مذاق القهوة لم يعُد يُعجبني، الموسيقى أصبحَت صاخبة، والقمر لا يضيء سمائي، والمصباح الأخير في غُرفة أحلامي قد

انطفأ واحتلَّها الظلام الكامل، رحيلكِ لم يكُن سوى ضربة قاضية تمنيتُ أن أموتَ بعدَها، تمنيتُ أن تُحبيني، أن تلمسي يدي بيديكِ الناعمةَ وتُخبريني أنني لن أتركَك، تمنيتُ أن تظلِّي حتى لو انهارَ عالمي، تمنيتُ أن أرى عينيكِ للمرة الأخيرة تبتسِم لي، تمنيتُ لو كان بإمكاني أن أعتصركِ احتضانًا بين أضلُعي وأخبركِ أنكِ كل شيء، وبدونكِ لا أملكُ شيئا.. لمَ رحَلتي!؟

قرأَتها وترقرقَت الدموعُ في عينيها، والأغنية الفرنسية مازالت مُستمرة

formidable ,formidable

tu etais formidable j'etals fort minable

nous etions formidable

رائع رائع

كانت رائعة.. وكنتُ أنا مُثير للشفقة

كنا رائعين

لم تجِد سوى تعليقا منه على هذا المنشور سوى (إلى روان).. حاولَت أن تظل مُتماسكةً بقدر ما تستطيع، وإعجابٌ واحدٌ من صديقِه «مروان»!

دخلَت بروفايله لتسأله عن غياب «آدم».. هو صديقه الوحيد كيف غفلت عن هذا!! قالتها لنفسها وهي تلعن هذا النت البطيء في الكافيه، تدخُل البروفايل الخاص به وتتفاجأ أنه قد توفي منذ شهرين!

هنا لم تتمالَك نفسها وبكت بصوتٍ مسموع لينظُر إليها كل من في الكافيه وهي تُحاول تهدئة نفسها، وتمسك المناديل وتمسح دموعها لتنظُر إلى الساعة وتتفاجأ أنها السابعة والنصف، باقي نصف ساعة على موعدها المحدَّد، تُحاسِب

على قهوتها وترحل مسرعةً وتوقف التاكسي وتذهب للمكان، وتُفكِّر.. سأتركه اليوم، سأتركه اليوم، سأتركه اليوم!

مرَّت دقائق لتعطي السائق حسابه وتقِف أمام ذلك المبنى الضخم (المعهد الموسيقي عمارة ٥)، ظلَّت واقفةً أمام العمارة ما يقارب الدقيقتين، إلى أن أتى طفل صغير يُعطيها المفتاح بدون أن يتكلَّم، وتذكَّرت التسجيل!

(هبعتلِك المفتاح مع حد، حاولي تكوني طبيعيَّة جدًا معاه لو عايزة مصداقية أكتر).

أخذَت المفتاح وصعدَت للشقة رقم ٧، تفتَح البابَ بهدوءٍ لتجد الشقةَ خاليةً من أي شيء! اقتربت أكثر وأكثر فلم تجد أي شخص في الشقة! شعرَت بقلقٍ وخوف، دخلَت كل الغرف فلم تجد أحدًا، لتتفاجأ أن الباب يُغلَق، خرجَت من الغرفة سريعًا لتتفاجأ بـ«أحمد» عاريًا بالكامِل أمامها! كان ينظُر إليها كذئب جائع وها هو الآن موعد الغذاء! نظرَت له بخوفٍ حقيقي ظهرَ على وجهها، ضحكَ وهو يشرَب من الكأس الصغير الذي بيده:

-كدا يا «روان» تشكي فيا؟

-مِن حقِّي.. لما أحس بالخوف منك يبقى من حقي أعرف فيه إيه.

-لا مفيش، الفكرة كلها إني بحبك ودلوقتي هثبِتلك كدا.

وضع الكأسَ واقتربَ منها إلى أن لمسَ صدرها بيده، وهي تُحاول أن تُبعده وتضربه بلا فائدة، وهو يهجم عليها بقوةٍ وهي تُحاول أن تفلِت منه وتهرب.

-سيبني يا «أحمد».. سيبني!

قالَتها وهي تصرُخ فيه وتزيحه وتضربه في وجهه بكل قوتها وهو يمسكها بقوة، حتى تمزَّق قميصها وظهر جزء من صدرها...

-ابعِد عني يا حيوان.. يا آدم الحقني!!!

قالَتها وهي تصرُخ، قالَتها وهي تنهار في البكاء بشكلٍ هيستيري، إلى أن اقتربَت من الحائط فوجدت مفتاح الأنابيب، أمسكَت المفتاح فوقع من يدها لثقلِه وهوَ لم يشعُر، اقتربَت منه قليلًا، ورفعَته بكلِّ قُوتها لينزل على رأسِه، فتُبعد جسدَه بقدميها وتحاول الوقوف وهي تنظُر للدم على الأرض.. تضَع يديها على فمها تحاول إسكات نفسها من الصدمة التي تشعُر بها، حاولت أن تُعدِّل ملابسها سريعًا لتهرب من هذا المنزل وتوقف أول تاكسي يقِف أمامها، وفي أقل من نصف ساعةٍ كانت في بيتها تدخُل المنزل لترتمي في حضن أمها وهي مُنهارة في البكاء... وحكَت لها كل ما حدث، وعلامات الدهشةِ والغضب على وجه أمها!

***

الفصل الرابع عشر

(اصرُخ كيفَما تشاء.. لن يسمعك أحد)

***

الساعة الواحدة ظهرًا.. استيقظَ وهو يشعُر بصداعٍ خفيف يدور برأسه، نظرَ إلى «ميرنا» فوجدها نائمةً بجواره كالجثة لا تشعُر بشيء، ارتدى ملابسه المبللة من ليلة أمس، وأغلق البابَ خلفه بهدوءٍ ونظر إلى محفظَته فوجدها فارغةً ولا يوجد بها سوى البطاقة وصورة لـ«روان» وأمي.

وضع المحفظةَ في جيبه ويعلم أنه ليس معه مال، سيمشي كثيرًا إلى البنك ليسحَب جزءًا من المال.

طوال الطريق يُفكِّر في تلك الليلة الساخنة مع «ميرنا».. تلك الفتاة الغجرية فائقة الجمال أو هكذا كان يرى، يُفكِّر في كل تفاصيلها الصغيرة، يُفكِّر بها ولأول مرةٍ لم يشعُر بـ«روان»! أتت على خاطره بدون فائدة! ربما تأثيرها كاد أن ينتهي بفضل «ميرنا»، دخل البنك وأخذ رقم انتظار، وجلس حوالي ساعة ونصف مُنتظرا دوره، تقدَّم ناحية الموظّف:

-لو سمحت أنا عايز أسحب ٢٠,٠٠٠ جنيه من حسابي.

-الاسم لو سمحت.

-«آدم».. «آدم» عبد الحميد.

-ممكن بطاقة حضرتك؟

أخرجَ البطاقةَ وأعطاها له.

-ممكن حضرتك تستريَّح شوية.

جلسَ حوالي عشر دقائق أخرى حتى يتأكدوا أنه تخطى عامه الـواحد والعشرين! بعدها ناداه أحد الموظفين بالبنك وأحضر له المبلَغ، وقال له أنه سيؤثر على الفوائد، لم يبالِ بما قالَه إلا أنهُ أخذ المال في كيسٍ صغيرٍ ملفوف بجرنال، وضع المال في جيب الجاكت الداخلي وذهب إلى محل الملابس ليشتري له قميصين وبنطلون وجاكيت لتغيير ملابسه المبتلة تلك والتي أنهكها التراب والعرَق والجو فهو يلبسها منذ ثلاثة أيام.

أخذ ملابسه وذهبَ للمطعم ليطلُب وجبةَ دجاج كاملة ويذهب للبيت الذي يعيش فيه الآن!

يفتح البابَ ويجد «ميرنا» مازالَت نائمة، يضع الطعام على الطاولة ويُجهِّز كل شيء ويُغيِّر ملابسه ويوقظها من النوم:

-«ميرنا» قومي.

فتَحت عينيها ببطءٍ وأكملَت:

-يلا علشان نفطَر، أو نتغدى، الساعة خمسة المغرب!

استيقظَت ونظرَت له وهي تبتسِم:

-صباح الخير يا هرقل!

-هرقل!؟

-أنا عرفت «هيام» مكانتش عايزة تسيبَك ليه.

-هاها طيب يلا قومي جِبت أكل.

وقفَت وارتدت بيجامتها وجلست معي على الطاولة، وبدأنا نأكل، نظرتُ لها، كان يبدو عليها الجوع الشديد، كانت تأكل بسرعةٍ ومن كل الأنواع، إذا كان الدجاج أو الأرز أو السلطة أو الطحينة...

انتهينا من طعامنا، فأمسكَت علبة سجائرها وأشعلَت سيجارةً ومدَّت يدها لتعطيني واحدة...

-معايا علبة.

-انت جِبت الفلوس؟

-آه.

-جبت كام؟

-٢٠,٠٠٠

-كويس.

-باقي منهم ٧١

-هتشيلهم فين؟

-هنا عندِك.

-مش خايف آخدهم وأخلَع!؟

-بعد ليلة امبارح، لا.

ضحكَت وأنا أيضًا ضحكتُ معها.. نفثَت دخان سيجارتها بقوةٍ وبدون أن تنظُر لي:

-تِعرف إني بقالي يومين مأكلتِش!

-أنا كمان.

-شكرًا على الأكلة الحلوة دي.

-لا العفو!

صمتنا قليلًا ثم حاولتُ أن أقطَع ذلك الصمت:

-طب إيه مش هننزل؟

-لا انزل انتَ، أنا هروح أجيب حاجة.

-آجي معاكي؟

-مش عارفة.

-يعني آجي ولا لا؟

هزَّت رأسَها بإيجابٍ:

-تعالى، تعالى.

تحرَّكنا في الليل ولم أكن أعلم إلى أين سنذهَب، ظللنا نمشي كثيرًا في تلك الشوارع الجانبية المظلِمة التي لا يُوجد بها الكثير من الناس وإن وجدَ فإن أشكالهم مُقززة ومخيفة، حيث وقفَت قليلًا وهي تنظُر يمينًا ويسارًا، ووقفَت ما يُقارب العشر دقائق، وأنا قد مللتُ من الوقوف.

-«ميرنا» هو احنا هنا بنعمِل إيه؟

لم تنظُر لي وقالَت لي بلا مبالاة:

-بنجيب حشيش وهيروين!

-نعم!!

-زي ما سمعت.

-وإيه اللامبالاة اللي انتي بتكلمي بيها دي! احنا ممكن يتقبض علينا في أي لحظة!!

-لا هنا أمان.

هنا تملكني الخوفُ رغم اشتياقي لذلك التراب الأبيض أو تلك المادة المسماة بالهيروين، اشتياقي لترك تلك الأرض والتحليق في الفضاء الواسع.

-يلا.

قالَتها «ميرنا» وأكملنا سيرنا في تلك الشوارع الضيقة، ولكن تلك المرة شعرتُ بالقلق والخوف، قدمي لا تحمِلني وعقلي يرسم الكثير من تلك السيناريوهات المقلِقة، مشينا ما يقارب العشر دقائق ثم وقَفنا!

-وقفنا ليه تاني!!؟

-اتقَل انت بس.

وقَفنا ما يقارب الخمس دقائق حتى أتى علينا شابٌ قصير القامة نحيف الجسد قمحي اللون، وأسنانه يأكلها السوس وشفتيه سوداء داكنة وعينيه شديدة الاحمرار، وشعره خشن وقصير... سلَّم على «ميرنا» وتجاهلَني تمامًا وكأني غير موجود!!

أخرجَت من جيبها سبعمائة جنيه وطلبَت مني خمسمائة جنيه وأعطتهم له.

أخرجَ من جيبه كيسًا صغيرًا مغلفًا جيدًا، وقِطعتان من الحشيش.. أخذَتهم ووضعتهم في جيبها، ونظر لها:

-طيب إيه مش ناوية؟

قالها وهو يبتسِم لها وعينيه تملؤها الشهوة، وصوته الخشن وفمه الذي يفوح منه رائحة الحشيش والخمر، تلك الرائحة النتنة التي تُشعرك أن هناك جثة قد دُفنت بين فكَّيه!

نظرَت له باستحقارٍ:

-مع النضاف بس.

-يعني اللي جنبِك مش باين عليه إنه نضيف، دا شكله منهم.

هنا عرفتُ قصدَه واقتربتُ منه لأصفعه بيدي، ولكن أمسكَتني «ميرنا» من ذراعي بقوة:

-إنك تتعارِك هنا! دا معناه إننا مش هنطلَع إلا واحنا جثث!

نظرتُ لها والغضب يملأ وجهي.

-يلا مش وقتُه، لازم نمشي حالًا.

قالَتها بحدةٍ تلك المرة، فنظرتُ له وفي سري قلت.. ليك يوم! وهو مازال ينظُر لي بتلك الابتسامة المستفزَّة، ولكني استدرتُ ودفعتني «ميرنا» من ظهري للأمام وهي تضحك:

-يلا بقا.

ذهبنا وخرجنا من تلك الشوارع، وذهبنا مباشرةً للمنزل للتمتع بالحلوى

الخاصة بنا!

الحزن يأخذ منك الكثير لدرجة أنك لم تصبِح كما أنت، اقتلعت من جذورك وبقي آخر فرع لا تعرف عنه الكثير، كل ما تعرفه عنه هو مجرد فرع يبث فيك النبض لا أكثر!

دخلَت «وسام» بيتها وهي تحمِل بعض الأكياس المحملة بالطعام وتضعهم على الطاولة، وتذهب لغرفة أبيها بخطواتٍ سريعة لتُوقظه للعشاء.

تفتح الغرفةَ وهي تقِف على الباب:

-بابا قوم يلا علشان نتعشى.

لم تتلقَّ منه إجابة! تعلَم أن والدها نومَه ثقيل، تقترِب منه وتضع يديها على كتفه وتهزه بلطفٍ وهي تُحدِّثه:

-بابا قوم يلا.

للمرة الثانية لم تتلقَّ إجابةً! تهزه بقوة أكبر تحاول إيقاظه:

-بابا قوم يلا!

لا إجابة! هنا شعرَت بنغزةٍ قويةٍ في قلبها، شعرت بارتفاعٍ في درجة حرارتها، وقلبها الذي كاد أن يُحطِّم صدرَها، وبصوتٍ ضعيف:

-بابا!!

أمسكَت يديه لتجد أنه توقَّف عن النبض! أمسكَت يديه الأخرى ولا فائدة، عدلَت جلسَته تُحاول بكل الطرق التي درستها للتأكد أنه نائم لا أكثر.. تهرب من الحقيقة المفزِعة بحججٍ تسعى لتصديقها! تهرب من عقلِها الذي أخبرَها أنه مات، تهرب إلى أن تجلِس بجواره وتحتضنه وتصرُخ بقوة:

-بابـــا!!!

وكأنّ الكون أصبح ضيقًا لدرجة أنه انحشَر كله بحلقِها، شعرت أن الموتَ قد قارب، بكاءٌ لم يهبط من قبل من عينيها، فمٌ لا يعرف إلا الصراخ، مات من كان لها الكون بأكمله، مات والدها!

***

مرَّ أسبوعٌ كامل لم تخرُج فيه من غُرفتها.. جلسَت تبكي وهي خائفة وجسدها يرتعش ويهتز من مجرد سماعها لكلمة «أحمد» أو «آدم»! خوف مما فعله ذلك الشيطان، وخوف من ذنبٍ لم يُغتفر من قِبل «آدم»، أين هو الآن!! مازال السؤال يدور في رأسها.. يفتح الباب ويتقدَّم بخطواتٍ بطيئةٍ عليها ذلك القصير ذو الوجه الدائري ولحيته الخفيفة وبعض الشعيرات البيضاء التي توجد برأسه، وهي تنظُر له ببكاءٍ تُحاول منعَه، وهوَ مازالَ ينظُر إليها نظرات غضبٍ يُحاول إخفاءها... كان والدها.

-بابا!

قالَتها وهي تقِف وتذهب إليه، يبعدها بيديه ويأمرها بالجلوس، جلسَت بدون أن تنطِق حرفًا واحدًا، نظر إليها طويلًا قبل أن يتكلَّم:

-لما رفَضت «أحمد» كُنت حاسس إنه مش كويس، وانتي اتمسّكتي بيه بشكل جنوني، ومكنتش أقدر أكسر فرحِتك.. (وأشعَل سيجارته وأكمل حديثَه)- لو رفضت كنتي هتحبِّيه من ورانا، ومفيش ابن أو بنت متقدرش تغفِّل أبوها وأهلها، إلا لو كانت بتحبّه وحبه فوق كل شيء، وأنا عارف إنك كنتي بتحبي «أحمد» فوق كل شيء!

عادَت للبكاءِ مرةً أخرى وهو لم يبالِ:

-المحامي قالي إننا لو رفعنا قضية احنا اللي هنخسرها!

حاولَت أن تمسَح دموعَها وقالت وهي تتنهَّد:

-ازاي؟

صمتَ ما يُقارِب الخمس دقائق مُحاولًا ترتيب الكلام ليقوله كله مرةً واحدةً، ونفث دخان سيجارته قبل أن يطفئها:

-«أحمد» كان في التدريب في الوقت دا! وكان بيمرَّن ٣ لاعبات لبطولة الجمهورية، والثلاثة شاهدين بكدا، دا غير أمن النادي اللي أثبَت إنه كان موجود في نفس الوقت اللي كان فيه معاكي في الشقة!! يبقى ازاي بقى كان في الشقة معاكي وكان في التدريب، حتى الجرح اللي في راسه متسجِّل في المستشفى اللي اتخيَّط فيها أربع غرز في راسه قبلها بيوم! وسبب الجرح إنه عمل حادثة لأن عربيته بقالها يومين في الصيانة دا على حسب كلام الميكانيكي! قضية خسرانة بكل ما تحمله من كلمة!

هنا نظرَت إليه والدهشة والخوف يملآن وجهها، هنا شعرَت أن لسانها قد شُلَّ عن الحركة! حاولَت أن تتحدَّث، فخرجت كلمات غير مفهومة:

-بس بس دا دا كان معايا! حتى الشقة اللي قلتلَك عنوانها كان...

هُنا قاطَعها والدها وقد ظهرت نظرات الغضب الحقيقي:

-الشقة عايشة فيها ست مُسنة، وبقالها كتير في الشقة ومش بتنزِل، دا على حسب كلام البواب وسُكَّان العمارة..

ثم صمتَ قليلًا قبل أن يُشعِل سيجارته الثانية:

- انتي متأكدة إنه «أحمد» مش حد تاني ولا حوار!

هنا لم تعرِف ما يقوله والدها، هنا حاولَت أن تفهَم، وحين فهمَت ما أراد

أن يقوله تفاجأت بصفعةٍ قوية من والدها وهو يغادر غُرفتها ويتركها تبكي وأصابعه الضخمة تملأ وجهها... وهنا خيَّمَ الصمت، حتى بكائها وعويلها اختفى، كأنهما لم يكونا موجودين يومًا، إنما هو الصمت يملأ ملامح وجهها، صمتٌ يمتزج ببؤسٍ وحُزن، مرت ساعاتٌ طويلة، كانت طويلة أكثر من أي وقتٍ مضى، وقفت أمام المرآةِ بخطواتٍ بطيئة والمقص في يدها اليمنى، على أتم استعداد لتقص شعرها، وتنظُر في المرآة بعُمق لتتفاجأ أنها أصبحَت تُشبِهه! تُشبهه كثيرًا بنفس بؤسه وحُزنه عليها، ولا داعي لأن أقول من....

***

الفصل الخامس عشر

(تزداد الأمور سوءًا كلما حاولتَ الاختيار، كلما حاولتَ الهرَب، كلما تذكرتَ ما كُنتَ عليه سابقًا!)

***

مسحَت خصلات شعرها بأصابعها واعتدلَت في جلستها وهي شِبه عارية وهو أيضًا كذلك.. تضَع الهيروين بسطورٍ مُنتظمة، ثلاثة أسطر لكل منهما، وتُخرج تلك الأنبوبةَ الصغيرة، وتسحب أول سطرٍ بعُمق وهو ينظُر إليها ويفعَل مثلَها.. فلم تهدأ وأخذَت الثاني والثالث، وهُو يتبعها، بعد عدة دقائق فقد التوازُن، تاهَت روحُه بين مجرَّة درب التبانة، على سقف خياله، تمنى لو أن يكتب في تلك اللحظة ولكنه اعتزَل، ولن يعود للكتابة من جديد، الهيروين أمتَع بكثيرٍ من هذا الهراء، مرَّت ساعة وهما لا يشعران بأي شيء، لا بألمٍ ولا بحُزنٍ ولا ذكريات... لا شيء، هي مجرد سعادة ويتمنيا أن يظلَّا بها للأبد، للنهاية!

وقفَت «ميرنا» لتسحب «آدم» من يديه بقوةٍ للغرفة، ورمته على السرير وهو مُستسلم تمامًا، وترمي جسدها العاري عليه وتبدأ شظايا الجنون تخرُج من أجسادهم على هيئة معركة ساخنة من الجنس، معركة دامَت ما يقارب الأربع ساعات، راحة ويُكمل، راحة ويكمل... إلى أن أتت الراحة الكاملة، واستلقيا وهما ينظُران للسقف.

أشعل «آدم» سيجارةَ الحشيش وأعطاها أخرى، وبدأت السحابة تخرُج من فمهما تملأ الغرفة، بدأ كلاهما بالضحك حتى انتهت السيجارة.

وصمت، صمتٌ طويل لم يُحدَّد وقته، شعر «آدم» بأن «ميرنا» قد نامت، لم ينظُر لها ولكنه تكلَّم:

-أكيد اللي أنا فيه مش طبيعي! أنا بتعلَّق بيكي يوم عن التاني، تقريبًا انتي أقوى من مية سطر هيروين، حتى مكُنتِش ممكن أعتقد إني هغير على واحدة زيك مع ديلر! إيه اللي بيحصَل، ولا أنا بقيت بحبك!؟ بس باين كدا، شكلي فعلًا بحبك!

مرت دقيقتان قبل أن تتحدث «ميرنا»:

-مِش ملاحِظ إنك لأول مرة أعرفك فيها ماتتهتهش؟

لم يكُن يعلَم أنها مازالَت مُستيقظة، ظنَّ أنها نامَت، ارتبكَ قليلًا قبل أن يُخبرها:

-أنا مقصُدش أقول حاجة من اللي قولتُه، أنا بس.. سكران!

-تعرَف إن أكتَر كلام صح بتقوله وانتَ مضايق و... وانت سكران!

-فلسفة رخيصة!

-لا أنا أرخَص!

ضحكا هما الاثنان لثوانٍ:

-انتي كُنتي بتدرسي!؟

-إعلام.

-حلو إعلام.

-وانت؟

-المفروض إني في تجارة.

وخيَّمَ الصمتُ مرةً أخرى، حاولَ أن يُزيح هذا الصمت:

-انتي إيه اللي خلاكي تروحي بار وتدمني وتبقي بالحالة السودة دي؟

هنا صمتَت، نظر إليها فوجدَ بعض الدموع في عينها وهي تُحاول جاهدةً إخفاءها، تخفي ماضيا تهرب منه بأقصى الإمكان، تهرب من نفسها، تهرب في كل مرة يسمح إليها بالهروب...

سحبَ علبة السجائر بجواره وأخرج واحدة وأعطاها أخرى، وأشعلَ سيجارته ونفثَ دخانها بهدوءٍ قبل أن يعود للكلام مرة أخرى:

-مكنش قصدي أضايقِك!

أخذت منه الولاعة وأشعلَت سيجارَتها وهي تنظُر للسقف وعينيها تسترجِع الكثير من التعاسة والحزن، تسترجع وكل قطعة بجسدها تؤلمها، مرّ ما يقارب الخمس دقائق، وتكلَّمت:

- مبحبش أحكي، بس هحكيلك.

بدأت «ميرنا» في سرد حكايتها كلها و»آدم» في كامل إنصاته بدون أن ينظر لها، كان يستمع بعناية لكل شيء تقوله حتى لو كان غير مهم، حكت كل شيء، منذ أن كانَت طالبة في كلية الإعلام بمجموع ٧٩ ٪ أدبي إلى نومها بجواره الآن...

وغرق كل منهما في نومٍ عميق.

مرَّت عشرة أيام.. أنفقا فيها الكثير على الهيروين والحشيش، حتى إنه سحب مبلغًا كبيرًا آخر كان ما يقارب السبعين ألف جنيه، وقد تم صرفهم بالكامل، وهو يقوم بنفس الشيء يوميًا.

إلى أن جلسَ بجوارها وأخبرها:

-«ميرنا»، أنا بحبك.

نفثَت «ميرنا» دخان سيجارة الحشيش وردَّت عليه وهي تمسك يديه:

-وأنا كمان.

فقال بسرعة:

-يبقى نتعالِج ونرجَع كُليتنا ونتجوِّز.

ضحكَت في استهزاءٍ:

-إيه دا! انت خيالَك واسع.

-ليه!! مهو أنا هسحَب الفلوس الباقية من البنك وندخل مصحة نضيفة ونرجع زي الأول وأحسَن كمان.

-مش هننجح.

-نحاول.

نفثَت دخان سيجارتها وظلَّت صامتةً تُفكِّر ما يُقارب العشر دقائق:

-نحاول!

***

ليلٌ بدون قيود، وغُرفةٌ مُنخفِضة الإضاءة ولكنها مُهيَّأة تمامًا للقراءة.. الجو أصبح يميل للبرودة، فصل الصيف اللعين قارَب على الانتهاء، خمسة أشهر من الإقلاع تمامًا عن الهيروين، كم أصبحتُ أكرهها وأشتاق إليها!

أجلِس على الطاولة وأنا أقرأ الكتاب، ليُفتحَ باب غرفتي ببطء، ويتقدَّم بخطواتٍ بطيئةٍ لم أستطِع أن أحدِّد مظهره بسبب الإضاءة الضعيفة التي لا تُنير غير الكتاب والطاولة، مازال يقترِب إلى أن وقف فجأةً، وبدأت أسحب

النفس بعمقٍ وأغمضت عيني ثم أفتحها بعد دقائِق لأجده يجلس أمامي ووجهه واضح تمامًا... د. عصام!!

نظرتُ إليه وهو ينظُر إليّ وبيده ذلك الكيس الأبيض، اقتربَ وسحب الكرسي ووضع ذلك الكيس الصغير أمامي.

هبطَت بعض قطرات العرَق وهو يعلَم كم أشتاق إلى هذا الكيس الصغير، نظر إليَّ مُباشرةً وهو يبتسِم نصف ابتسامةٍ:

-عامِل إيه يا بطَل؟

وضعتُ يدي على الكيس وأنا أنظُر إليه:

-بقيت كويِّس.

سحبَ الكيس بجواره بهدوءٍ قبل أن يضعَ يده على يدي بقوة:

- لا لا انتَ بتتعالِج، مينفعش!

- علاج إيه بس! دا أنا كنت مفكَّر إن «وسام» هي اللي حطتهولي.

سحبَ يديه من فوق يدي:

- طيب أي خدمة، هيروين من نوع خاص، معتقدش إنك جربته قبل كدا.

-شكرًا يا دكتور.

-العفو يا عموووور.

قالَها وهو يضحَك باستهزاء:

-في طلَب بقى مُقابِل الخدمة دي.

-انت تؤمر يا دكتور.

-انت بقالك خمس شهور، يعني اتعالِجت.. قدِّم طلَب وأنا هقدِّمه لرئيس المستشفى وييجي يشوف حالتَك، وبكدا انت برَّا المصحة دي يا معلم.

-طبعًا لازم أخرج.

-شاطِر.

قالَها ورحلَ وأنا مازالَت يدي على الكيس، ورصصتُ تلك الأسطر على الطاولة وانطفأ الضوء، وبدأَت مُتعتي وهو يُراقبني من النافذة بابتسامةِ النصر تعلو شفتيه!

صباح اليوم الثاني..

تفتح الغرفة د. «وسام» لتوقظني من النوم، أستيقِظ وأنا أنظُر إليها وهي مُرتدية تلك البلوزة السوداء والتنورة تعلو الركبة وعينيها المحمرة كالدماء:

-كنتي فين من أربع أيام؟

قلتُها وأنا أحاول الاستيقاظ من النوم، وأحاول أن أفرد جسدي، نظرتُ إليها لأتفاجأ بأنها تكتُب تقريرَها بوجه جاد ولم تنظُر لي وهي تقول:

-والدي اتوفى، وبكتب التقرير بتاعك لأني هسيب المستشفى.

-إيه دا ليه!!

قلتُها لأول مرةٍ وأنا في حالة فزعٍ حقيقية.

-لأن مفيش منك رجا، حاوِلت كتير معاك وفشلت، وأنا علشان دكتورة نفسية شاطرة فكنت عايزة أقولك إني هتخطب قريب لـ«د. عصام».

اشتعَلتُ غضبا، ولكني حاولتُ أن أكون أبلها بعض الشيء:

- «د. عصام» اللي بيديلي الهيروين!

- نعم!!

قالَتها وهي تنظُر إليّ والدهشة تملأ ملامح وجهها...

- آه والله، حتى الكيسين هتلاقيهم في الدرج!

قامَت مُسرعةً لتفتح دُرج المكتب لتجد كيسين يحتويان على بودرة بيضاء!

- مين دخَّلك البتاع دا!! «دكتور عصام» عُمره ما يعمل كدا.

- لا لا عمَل، هاتي الفون من الكرسي هناك، شيليه من الشاحن وهاتيه.

ذهبَت لتأخد الهاتف الخاص بي لتتفاجأ أني أضع صورتها خلفيةً لهاتفي وقد نسيتُ هذا الأمر.

-انتَ حاطط صُورتي ليه؟

-مش وقتُه، استني الأول.

أمسكتُ الهاتف وأنا أبحث فيه عن التسجيل لأشغل أول ملف يُقابلني، والتسجيل كامل بيني وبين «دكتور عصام».

هنا قطعت التقريرَ بغضب، وامتلكتني سعادةٌ لم أشعُر بها من قبل، وذهبَت مُسرعةً لغرفة «دكتور عصام».

بعدها بنصف ساعةٍ أتت ومعها «دكتور عصام» وهو ينظُر إلي بغضبٍ ويُخرِج فيديو مسجَّل لي وأنا أرص السطرين والنور مطفأ فلم تأتِ الرؤية كاملة.

نظرَت إليَّ بغضبٍ وهو يُحاول أن يستفزَّني بمقولَة (حبيبتي دا كداب)، وأكمل:

- امتناعه عن الهيروين اتحوِّل لجنون، لازم يتحط تحت حراسة أو نبلَّغ الشرطة وهي تعرف ازاي تتعامِل مع واحد بيدّعي الجنون.

أشعلتُ سيجارتي وأنا أنظُر إليه باستهزاءٍ، وهي محتارة بيننا، وأخرجتُ الهاتِف لأشغِّل التسجيل الصوتي، يُقدم هو عليّ مُسرعًا ويسحب الهاتفَ ليمسَح تلك التسجيلات، وأنا بدون أن أنظُر إليه وأنفُث دخان سيجارتي:

-امسحهم واخدين مساحة على الفاضي، أنا كدا كدا بعتهم ريكورد على الواتس لرئيس المستشفى.

هنا احمرَّ وجهه ولم يتمالَك أعصابَه، وحاول أن يضربني قبل أن تجري «وسام» وتتسلَّق على ظهره، وأنا أدندن بأغاني الأندر جراوند التي كانت عالمي في السابِق والحاضر، والسيجارة بين يدي في منتهى برود الأعصاب.

أزاح «وسام» من على ظهره إلى أن سقطت على ظهرها وصرخَت من الألم.. هنا لم أتمالك أعصابي ولم أشعُر بنفسي إلا وأنا أضرِبه بقدمي أسفل الحزام، وقبل أن أكمل يأتي مدير المستشفى ذلك العجوز متوسط الطول نحيف الجسد وذقنه البيضاء ورأسه المتخذة الشكل المستطيل مع صلعة ونظارة مُستطيلةً وبذلة سوداء فخمة من الطراز القديم... يقف أمام الغرفة ومعه أربعة من أمناء الشرطة ليقبضوا على «عصام» وهو ينظر إليه:

- «د. عصام» انت متحوِّل للتحقيق.

أخذَ أمناء الشرطة ذلك الأحمق وأنا أذهب مسرعًا لأطمئن على «وسام» لأجدها تنظُر لي:

-أنا كويسة.

لم أشعُر بنفسي إلا عندما احضنتُها بقوةٍ وهي لم تقُم بأي رد فعل، احضنتُها ما يُقارب الدقيقتين كاملتين، وهي أغمضَت عينيها وبدأت تبكي بصوتٍ مسموع، وبعدت عنها وهي تقول:

-بابا مات يا «عمر»!!

مسحتُ رأسَها ببطءٍ وأنا أضمها مرة أخرى:

-الله يرحمه.

مرَّ شهرٌ ولم تعلَم عنه شيئا.. كبرت كثيرًا، روحها لم تعُد تسكُنها، دموعٌ في كل صلاةٍ تدعو أن يعُود، تندَم على طرده، تندم كثيرًا وتبكي أكثر، تتحدَّث مع أي شيء يُطمئنها، تبحث عنه في الشوارع والمستشفيات منذ اليوم الثاني لرحيله من المنزل، لا تملك في هذه الحياة غيرَه ولا تعيش إلا من أجله، صغيرها مهما كبر، مهما حدثَ هو ابنها وقلبها النابض، تتصل به يوميًا ما يقارب السبعين مرة، ولكن هاتفه مغلق منذ اليوم الأول، تمر الأيام كسنين، وتقف في النافذة تنظُر إلى الشارع في انتظار مجيئه، تعيش على انتظار عودته، تدعو له كثيرًا، شعرت أن كل شيء متوقف، تعبَت قدمَيها من الجري طيلَة اليوم، لم تترك قسمًا أو مستشفى إلا وبحثَت فيها عنه، لم تدع شارعا إلا وذهبَت وسألت الناس عنه وصورته بيديها، لا تريد شيئا سوى أن تراه، تحتضنه، تُخبره أنها لن تضربه ثانية، لن تُعاقبه، أن يبقى بجوارها فقط لا أكثر من ذلك، تصرُخ في نافذتها (أين أنتَ يا بني)!!!

***

الفصل السادس عشر

(أي إله سيرضى بكل ما ترى من ضعفٍ وذل! أي إله سيرضى أن يُبقيكَ في القاع ولا يُهيِّئ لك الظروف لترتفِع ولو لقليل! أي إله سيرضى عنكَ وأنت غير راضٍ لا عن نفسِك، ولا آلهتك!)

***

مرت ثلاثة أيام وهما ممتنعان تمامًا عن الهيروين والحشيش، لا يفعلا شيئا سوى الجلوس في البار مع كأس الويسكي وسجائر المارلبورو... ثلاثة أيام وهما على تواصلٍ بالمستشفيات والمصحَّات النفسية، حتى وجدا مصحَّةً تُعالج الإدمان ولكن تكلفتها غالية بعض الشيء مائتي ألف جنيه تكلفة لشخصين لخمسة أشهر كاملة من طعام ومكان نضيف وغُرفة خاصة ورعاية من أفضل مستوى مائتي ألف لشخصين!

اليوم الرابع..

١,٠٤ AM

يتحرَّك كل منهما بتوتّر وقلق ويذهبان إلى البنك، ووقفت «ميرنا» بالخارج ودخل «آدم» يسحَب ورقته لينتظر عشر دقائق فقط ويأتي دوره، يقف أمام موظف البنك ويطلُب منه معرفة حسابه، ينظُر إليه موظف البنك بنظرات شك:

-ممكن بطاقتَك؟

-آه طبعًا اتفضل.

نظر إلى البطاقة كثيرًا حتى يتأكد أن ذلك المدمِن الذي يقِف أمامه هو صاحب هذا المبلغ:

-شكلَك متغيَّر جدًا عن صورة البطاقة!

هززتُ رأسي إيجابًا بنعم.

-حضرتَك عايز كام؟

-٢٠٠ ألف.

-ثانية واحدة حضرتَك.

بعد مرور ما يقارب الخمس دقائق:

-كدا يا فندم انت سحبت ٠٦٢ ألف وباقي من رصيدَك في البنك أربعين ألف.

شعر بتوتُّر لكونه يسحب ذلك المبلغ الكبير، ومن أين ستعيش أمه! ولكنه أيضًا يُريد التخلُّص مما هو فيه، يريد أن يعودَ من جديد إلى حياته السابقة، يريد أن يعيش كأغلبيّة الشباب، بين الجامعة والعمل و»ميرنا».. التي أصبحَت إدمانه، الإدمان الذي جعله يتحمَّل اليوم الرابع بدون هيروين!

وضعوا المال في حقيبةٍ وأخذها وخرج لـ»ميرنا» ليجدها تنتظره وتُدخِّن سيجارتها:

-يلا نمشي!

-أنا جعانة.

-طيب تعالي نروح نفطَر ونقعُد في برازيليا نشرب فنجانين قهوة، وبالليل نروح نحط الفلوس في المصحَّة.

-قشطة.

تحركا هما الاثنان إلى مطعم كبدة الفلاح، وجلسا ما يُقارب الساعة حتى وصل الطعام وأنهيا أكلهما ورحلا إلى برازيليا، ذلك المكان الدافئ، رائحة القهوة التي تُداعب خياشيمه، الموسيقى الهادئة، كان يدمن القهوة كما يدمن «ميرنا» حاليًا، و»روان» سابقًا!!

جلسَت وهي تتحدَّث عن كل شيء، عن أصدقائها في الطفولة والمراهقة، وحبها الأول والثاني والثالث... و»آدم» يحكي عن أمه وأبيه وأصدقائه، وكيف كان شكله وطبعه، وكيف تغيَّر الآن... ظلا يتحدثان ما يقارب الثلاث ساعات حتى أنهى علبتين من السجائر وثلاثة فناجين قهوة، وذهبا ليتمشيا على الكورنيش والشارع شبه خالٍ، لأول مرة تُصبح الإسكندرية خالية من الناس، الشمس لم تظهَر منذ الفجر، الجو يزداد برودةً وهما يتمشَّيان على الكورنيش ويتحدثان:

-تفتكري لو مكنش حصلنا اللي حصل! كنا هنبقى كدا؟

-آه.

-إيه دا ازاي بقى؟

-لأن احنا أصلًا عندنا دافِع إننا نعمِل كدا، احنا بنتلكِّك يا «آدم».

-بنتلكِّك!! يعني تفتكري «روان» لو مكنتش باعتني بأرخص سعر! كنت هكتئب؟

-وكام «روان» سابِت كام «آدم»!! ليه كتير معملوش زيك! أعرف اتنين كانوا نفس حالتَك كدا، واحِد بقى كاتِب مشهور وممثل في هوليود، أقل كتاب بينزلّه ببيع فوق الـتمانين ألف نسخة في أقل من سنة وعنده أربع كتب وأقل فيلم بياخد فيه مليون دولار! دا لما يكون طالع ضيف شرَف كمان، وواحد تاني طالِب هندسة ورسَّام شاطِر جدًا لدرجة إنه باع لوحة بـأربعة مليون جنيه

لمتحَف في فرنسا، ومن أوائل دُفعته كمان ودي سنة التخرُّج تقريبًا ليه!

-دول كانوا أقوى من الاكتئاب، أنا كنت ضعيف!

-لا انت دوَّرت على الضعف، الاكتئاب مش بيسيب حد قوي، المكتئب هو أضعف شخص في مشاعره، الألم دايما بيكون دافع، وانت استغليت ألمَك لقَلمَك.

-مش فاهم!

-دخلت بروفايلك ولقيت كتاباتك حلوة، في اللحظة دي كُنت لازم تتأكد إن ألَمَك ظهر بإبداع، زي ناس كتير، بس انتَ جيت تدمن هيروين معايا!

-أنا معاكي إني ضعيف وإني فاشل وإني معرفتش حتى أستغل الموهبة اللي ربنا عوضها عليا بألمي، أنا معاكي في كل دا.

- ليه يعني!؟

- علشان قابلتِك! مع الوقت اتأكدت إني مش بحتاج حد غيرك، مش عايز إلا انتي تقريبًا، حتى عمري ما فكَّرت بس إني أبقى كويس، ودلوقتي بتعالِج وانتي معايا علشان أبقى معاكي وأنا كويس.

رغم إني مقولتهاش من قلبي بجد إلا لواحدة، بس دي المرة التانية اللي أقول فيها إني بحبِّك انتي كمان.

ارتسمت على وجههما السعادة كالأطفال، وبدآ يغنيان ويرقصان وهو يمسك يديها بقوةٍ ويقول لَها:

-هتشتي.

لم تمر سوى لحظات حتى بدأ المطر في الهبوط، ويشتد المطر وهما يرقصان بجوار البحر وتحت المطر، يرقصان بين الأمواج والناس والسيارات... جنون

يجتاز كل شيء، الحب يخلُق المعجزات، آمِن فقط أنه سيأتي وسيُغيِّر بك الكثير.

مازال الرقص مستمرًا على أنغام الأمطار والموج، مازالا يرقصان والقليل ينظُر إليهما ولا يبالي بشيء ويغنيان للخيالِ في صوتٍ واحد:

لاااا لاااا لااااا لاااا غني وقولي مش مجروحة أنا لاا لااا لاااا لا غنييي وقولي مش مجرووووحة أنااااا

نامي واحضني في الخيال دا، قوليله خد لو مش مصدَّق

أنا مشيت ومش هبان.. لا انت مش الهواء من غيرك هعييش

على فكرة عادي أنا اتعوِّدت.. اطلع بالصدمة وانزل بمعلش

حاجة غريبة مبتتفهمش.. فارقت الواقع وعشت في الخيااااااال

المطر أغرقهم، شعرها أصبح يتطاير بصعوبة، وكشف جسده وهو بتيشيرت أبيض ملتصق بجسده...

كأنَّ الحياةَ تعطيهما النبض الأخير للحياة، كأنها تعطيهما الفرصة التي طالما بحثا عنها، تعطيهما الأمل لتقطعه فجأةً وهما مستمران بالغناء إلى أن تعبا من القفز والرقص:

لاااا لاااا لااااا لاااا غني و قولي مش مجروحة أنا لاا لااا لاااا لا غنييي وقولي مش مجرووووحة أنااااا

(الخيال - شمس)

عبر الطريق بسرعةٍ بين السيارات، وهي مازالَت تقف على الجهة الأخرى، يشيرُ إليها ويأمرها أن تعبُر، ولكنها تقِف ومازالت تضحَك، كانت ضحكتها أشبه بحواء عندما وجدَت أبًا وزوجًا وخالقًا في آن واحد، أشبه بذلك المطر الذي

يهبط على جبينكَ في رقّةٍ، تلك الغجرية التي تغيَّرت منذ أحبَّت!

-يلا عدِّي.

-آدم.

-إييه؟

-بحبـــك.

-وأنا كمان.. يلا عدِّي.

تظل تضحَك وهي تُغنِّي وترقُص وأنا أراها من بعيد حتى تقترِب لتركُض نحوي وهي تعبُر الشارع وأنا في سعادةٍ لم أشعُر بها قط، سعادة وضحكة لم أضحكها طوال عمري! تلك هي ما يقولون عنها من القلب، الشنطة في يدي والساعة الثامنة، وأضواء الاسكندرية تُحيط بنا في شتاءٍ لم أجد أروع من ذلك لتكون «ميرنا» معي، مازالت تركُض وأنا أنظُر إليها، ولم أعرف لمَ تهبِط الدموع من عيني، ومازالَت الابتسامة الواسعة على وجهي، تزداد الدموع وأنا واقف لا أتحرك ولم تختفِ الابتسامة، ولكن هبطَت دموعي لتختلطَ مع المطر، ودم «ميرنا» على الأرض بعد أن صدمتها السيارة!!!

مازلتُ أقف مكاني، لا حركة، لا نفس، مجرد تمثال تهبِط الدموع من عينيه وهو يضحَك، ضحكٌ ليس لها معنى سوى أنه مجنون، كأَن القدَر يقف بوجهك مُتحدِّيًا محاولاتك!

تجمَّعَ الناسُ على جُثة «ميرنا» الملقاة على الأرض، والدم يُغطِّي شعرَها الأسوَد الناعم، والسائق يُقسم أنها هي من ألقَت بنفسها أمام سيارته، يتجمع الناس ويتَّصلون بالإسعاف ليلحقوا «ميرنا» التي تحوَّلَت إلى جُثةً يُغطِّيها الدم!!!

ينظُر الناس إلى ذلك المجنون الذي يبكي ويضحك، ثم لم يجدوه، اختفى!

الاختفاء الذي طالما أجاده، (الهروب)، «ميرنا» لم تمُت، سآتي بحلواها، ويعُود للمنزل ليأخذها للمصحَّة.

تحرَّكَ وهو لا يعلم أين يذهب، تحرَّكَ في تلك الشوارع المظلمة، توقَّفَ المطر، توقفَت عيناه عن البكاء، لم يشعُر بنبض قبله، لا يرى إلا صورتها وهي ملقاة على الأرض، لا يسمع إلا صوتَها الأخير، (بحبك)!!

ظلَّ يسير إلى أن تفاجأ أنه يقِف أمام ذلك الديلر بنفس قذارته ولونه القمحي وأسنانه المقزِّزة:

-أيوه يا صاحبي أؤمرني.

-عايز ٣ اكياس بودرة وحتتين حشيش.

-مش انت برضو اللي كُنت مع البطل «ميرنا».. «آدم» باين!

-«عمر».. اسمي «عمر».

-أمال هيّ فين بطلِتنا.

-في البيت.

-يا بختَك بتقعُد عندها وتلاقيك هرتها لما شبعت.

-هاخد الحاجة ولا أمشي؟

-أصاحبي اصبر بس الكلام أخد وعطا.. أمال إيه الشنطة اللي انت ماسكها دي.

-هدومي، وعايز الحاجة دلوقتي علشان أمشي.

-طيب بص يا رايق.. الهيروين دلوقتي شاحح، وانت بقالك كتير بتشِد ومفعول بطل.. دلوقتي المكس هو الولد اللي في الكوتشينة، هو اللي بيقُش ويجيب من

الآخر.

هززتُ رأسي بأن يجلبه.

-بس تمنُه حرَّاق شوية.

-معايا فلوس كتير.

أخرجَ من جيبه سرنجتين وبودرة:

-طيب ركِّز بقى معايا، انت هتروح وتجيب معلَقة وشويّة ميه، وتحط البودرة دي وتسخَّنها، وبعد كدا هتسحَب من السرنجة وهي حاميَة كدا في العِرق... وهتنسى إنك عايش أصلًا.

أخذتُ منه الأشياء وأخرجتُ الشنطة أمامه وأعطيته ما طلب، وظلَّ ينظُر للشنطة كثيرًا إلى أن نظر للرجل الضخم الذي يقِف في آخر الشارع، ويهز رأسَه، أخذتُ أنا حاجتي ورحَلت، تائهًا وأنا أمشي، أشعُر أن كل ما يحدُث هو مجرَّد جُرعات، كل هذا لأني لم آخذ جُرعتي منذ أربعة أيام، عقلي يُصوِّر لي أن «ميرنا» قد ماتَت، كفى تهيؤات إلى الآن كفى.

وتفاجأتُ بضربةٍ قويةٍ في رأسي ليُغمى علي لبعض دقائق، استيقظت فلم أجد الشنطة بجواري!!! ولكن بضاعتي مازالت موجودة.

أخذتُها وأنا كالمجنون، لا أبالي بالمبلغ، كان كل ما أملِك، وكان مصدر رزقي أنا وأمي، وآخر ما ترك أبي لي، تركه لابنٍ عاق!

ذهبتُ إلى الصيدلية بجوار شقة «ميرنا» وطلبتُ منه أربع سرنجات لأني أعاني من البرد والحقن فوق في المنزل، أعطاها لي ولاحظَ الدماء على رأسي واقترب منها، إلا أني أخذتُ السرنجات ورحَلت بدون أن أضع حقّها حتى، وصعدتُ وأنا أعلم أني سأفتح الباب وأجد «ميرنا» نائمةً تنتظرني أن أعود ومعي حلوانا،

معي إدمان لم نتخلَّص منه يومًا، معي روحها التي تراقصَت بين الأمواج، أفتح الباب وأجدها نائمة!!

-الحمد لله.

قلتُها وأنا أُخرِج زفيرًا كبيرًا وأفعل كما قال لي ذلك الحقير (انت هتجيب معلقة وتحط شوية ميه والأنبوبة دي، وتسخَّنها وتاخدها في سرنجة وعرق إيدك على طول)

أتيتُ بملعقة من المطبخ، ووضعتُ قليلًا من الماء وأخرجتُ الأنبوبة لأُفرغها في الماء، وبدأتُ بالتسخين بولاعتي، وأنا أراها تغلي قليلًا أمامي إلى أن أصبحَت ساخنةً وتحوَّلَت البودرة البيضاء إلى اللون الأصفر الذي يمتزِج مع الماء، وسحبتُ ذلك السائل إلى السرنجة لأتفاجأ أن «ميرنا» اختفَت!! ليسَت موجودة!

حاولت أن أُنهي تلك التهيؤات وأنا أغرز تلك الحقنه في ذراعي حتى تدخُل عروقي، وبدأت أعطيها لنفسي بهدوء، وكأني ممارس وليست أول مرةٍ أقوم بذلك، اختلط الدم بذلك السائل، وما هي إلا لحظات حتى شعرتُ أن «ميرنا» عادَت من جديد وهي ترقُص لي وتنتظرني على السرير لتبدأ جولتنا وضحكنا وأنا تائه... تتجسَّد الذكريات أمام عيني تائه بينها، لم أسعَ أبدًا لتذكرها، أو عيشها مرةً أخرى، تائهٌ بين قدمَي أمي التي لا أعلم عنها شيئا، و»ميرنا» التي لم تمُت بعد و»روان» التي تنهَر فيّ بأن أبتعِد عنها حتى لا تُصابَ بسوء مني!! تائهٌ كآخر شخص من عائلة كبيرة في صحراء لا يوجد بها سوى الأفاعي والذئاب والعقارب!

إلى أن تمَّت الليلة!

ولم أصدِّق منها أي شيءٍ سوى أن «ميرنا» بجواري وتضحَك!

***

الفصل السادس عشر

إنه آخر كأسٍ في البار، لا تتركه هكذا، تناوَل الجرعات الأخيرة من الحُزن ومُت في صمت!

***

تحرَّكَت بخطواتٍ بطيئة بعد أن أنهت صلاتها والدموع تملأ عينيها، وتقترب من الهاتف لتتصل بأحد موظفي البنك لتسأله عن ميعاد الفوائد:

-أ/ شريف، أنا الحاجة «زينب» أم «آدم».

-أهلًا ازاي حضرتك، أنا كنت بدور على رقمك من فترة ومكنتش عارف أوصلك نهائي!

-خير يا أ/ شريف.

قالَتها بتوتُّر وقلق.

-هو «آدم» ابن حضرتك عنده أي مشكلة!؟

هنا شعرَت بالسعادة لمجرَّد أنه ذكر اسم ابنها، وشعرت بالقلق لأن صوته كان غير المعتاد في كل مرة.

-هو حضرتَك تعرف حاجه عن «آدم»؟ دا مُختفي من البيت بقاله شهر وشوية!

-مُختفي!!! يا حاجة دا سحَب ٢٢٠ ألف جنيه وفي كلام من موظف صاحبي إنه مش طبيعي وشكله مُدمِن ومصاحب واحدة باين عليها مش مظبوطة، ومع بعض دايمًا ومش بيسيبها!

بُمجرَّد أن قال أنه مدمِن وسحب ما يقارب المائتي وعشرين ألف جنيه لَم تتحكَّم بأعصابها فسقَط الهاتف من يدها، فقدَت الاتزان، شعرَت أن الكون كله يدور بها، نبضات القلب ضعيفة وصوت لا يخرج من حلقها، وألمٌ في المعدة كأن شيئًا ثقيلًا وُضعَ عليها، واشدَّت الآلام في صدرها وكأن هناك من يغرِز سيوفا بداخلها، جسدها بدأ في التجمُّد، والعرق يهبِط منها بغزارة، وضيق بالتنفس كأن هناك حاجزًا يمنع الهواء أن يمر بداخلها، تنخفض الدقات أكثر، ينخفض الأوكسجين، حاولَت التماسُك، حاولت أن تتحرَّك ناحية النافذة لتستنشق القليل من الهواء، ولكنها سقطَت قبل أن تصل للنافذة.

سقطَت وهي ترى ابنها «آدم» يقِف أمامها كتمثال يبكي عليها، ترى زوجها، ووصيَّتها لابنها، ترى نهايةً غير سعيدةٍ لابنها، تحاول أن تُناديه وتفشَل، تُحاول أن تقِف وتُزيحه ولكن لا إجابة من جسدها، ترى كل ما فات من ذكريات وألَم و...

«آدم»!

وكانت تنطِق بصعوبةٍ بالغة، ولكنها أصرَّت على الدعاء لابنها (يا رب احفظ ابني)...

وكانت آخر ما نطقته!

انقطَع النفَس واسودَّ المشهد بالكامل، اسودَّ كل شيء، حياة، مُستقبَل، حتى الحِبر انتهى بين تلك السطور البائسة وأصبحَ الأسود يُخيِّم على كل شيء، الأسوَد فقط!

جلسَت في سكونٍ تام، صمت قاتِل، تغيُّر كبير في ملامح وجهها، شعرها القصير، عيون تجمَّدت من البكاء، ومازالت تبحَث عمن يستطيع إعادة النبض إليها من جديد.. يضئ هاتفها بتلقي اتصال من صديقتها «غادة».

- «روان»!

- ....

- يا بنتي رُدي عليا.

- .....

- طيب أنا عرفت مكان «آدم».

هنا قطعت صمتها بدهشةٍ وفرحة حاولَت أن تخبئها وفشلَت:

-بجد!!!

-آه والله، موجود في شقَّة جنب كاب دور في المنشية وأوقات بيقعُد في الكاب دور.

هُنا لم تنتظِر أن تُكمِل المكالمة، قامت ترتدي ملابسها سريعًا، تركت غادة على الخط:

-ألووو.. يا «روان» رُدي!

ارتدَت ذلك الجاكيت الأسوَد ذو الفرو الداخلي وبنطالها الجينز الأزرق، وحاولَت وضع بعض المساحيق على وجهها، تحاول أن تتجمَّل، تُحاول أن تُصحِّح أي شيء، تحاول إنقاذ ما تبقى منها مع ذلك العاشق الذي لم تعلَم قيمته أبدًا إلا عندما اختفى!

خرجَت من غُرفتها لتتفاجأ أن والدها يجلس أمام التلفاز، وينظُر إليها في غضب!

-رايحة فين؟

وقفَت أمامه بتوتُّر، حاولت اختراع أي حجة لتفلت منه ويسمح لها بالخروج:

-واحدة صاحبتي رايحة أشوفها.

-لا.. مفيش خروج.

-بابا علشان خاطري.

هنا علا صوتُه بشدة وبغضبِ بركان:

-قلت لا.. ادخلي أوضتِك!

هنا دخلَت غُرفتَها وهي تبكي من الداخل، تبكي بدون أن تهبط دموعها، ذلك البكاء التي يقهر قلبَك كثيرًا، لا تشعُر بشيء مُوجع أكثر مما أنت فيه، ترى أن جسدَك سيُشل، وروحك ستخرُج، بكاؤها كان أشد كثيرًا من طعنة السكين في القلب!

دخلَت غُرفتَها وهي تُخرج الهاتف لتتصل بغادة:

-غادة، البسي وتعالي البيت، بابا مش هيرضى ينزِّلني إلا لما تبقي موجودة.

-دلوقتي.

-ساعة بالظبط هنروحله المكان دا ونرجع.

-حاضر.

-متتأخَّريش.

-سلام.

لم تنتظِر ردَّها وأغلقت الهاتف.

جلسَت ما يُقارب النصف ساعة في انتظارها، يُطرَق باب الشقة لتفتح أمُّها وتُرحِّب بغادة الصديقة المقرَّبة لابنتها، وتتقدَّم هي وأمها لغرفة «روان» التي تجلس بانتظارها.

-كويس إنك لابسة، يلا علشان ننزِل.

نظرَت أمها لـ»غادة»:

-لا مينفعش، الحاج مانِع إنها تنزِل.

-دي ساعة زمن يا طنط ومش هنتأخَّر.

-يا حبيبتي دا هو لسه نازل مينفعش.

-بصي يا طنط، ساعة بس هقعُد أتكلِّم معاها شوية وبعد كدا هرجَّعهالِك لحد عندك.

كانت «روان» تنظُر للاثنين ببلاهة، لم تكن تهتم بهما وبما يدور، كان الأهم بالنسبة لها هو الخروج، تخرُج تبحث عنه، تخرُج ويراودها التفكير في عدم المجيء قبل أن تعثُر عليه، التفكير يقتُلها، وفي شنطتها علبة السجائر الميريت التي تخشى أن تُخرجها أمام أمها وتنتظر النزول، حتى وافقَت أمها على ساعة واحدة، وأخذت حقيبتَها ونزلت مُسرعة و»غادة» وراءها، أوقفَت سيارة التاكسي:

-كاب دور لو سمحت.

- فين دا؟

-المنشية، بعد الغرفة التجارية.

وقبل أن ينطلِق السائق بلحظات ركبت «غادة» بجوارها.

-اصبري يا بنتي شوية.

بدون أن ترُد عليها، أخرجَت علبة السجائر وأخذَت السيجارة وأشعلَتها بتوتُّر ولم يعترِض السائق!

-نهارِك اسوِد، انتي من امتى بتدخَّني!؟

لم ترُد عليها، وظلَّت مُمسكةً بسيجارتها وهي تُقلِّب في بروفايل «آدم».. مرَّ الوقت بطيئًا إلى أن وصلا للكاب دور، كانت حوالي الساعة الثامنة ليلًا، نزلَت مُسرعةً واتجهت للبار، إلى ذلك الكابوس، إلى المتعة اللحظية التي تتحوَّل إلى إدمان، متجهة إلى عالم يرتقي بك إلى قمة الخيال، وينزل بك إلى أرض الواقع مُحطَّمًا، حاسبَت «غادةُ» سائق التاكسي، وجلسا هما الاثنين في البار يبحثان عنه، جلسا ينتظران أن يأتي، مرَّ الوقتُ سريعًا إلا أنها تفاجأت أنها العاشرة ولم يأتِ بعد، أحرقَت الكثير من السجائر وشربت كما شربوا، حتى ذهبت إلى تلك المرأة التي تجلس في أحد الأركان، فتسألها عن وصف «آدم»، وصفه القديم، الصورة التي لم تكن تعلم كم تغيَّرت الآن، مواصفاته وكل شيء، ولم تستطع أن تُساعدها.

نظرت إليها «غادة» في قلق:

-الوقت اتأخَّر والمفروض نروَّح.

-مش همشي إلا لما ألاقيه.

-انتي مجنونة، عايزة تجيبيلي مُصيبة؟

تكلَّمت وقد أوشكت على البكاء:

-غادة أرجوكي، انتي مش فاهمة يعني إيه ألاقي روح منِّي ضاعِت بسبب غبائي وطمَعي، أرجوكي اقفي جنبي.

-طب هتتنيلي تعملي إيه؟

-مش عارفة.

-طيب كدا هنضطر إننا نروح شقِّتنا القديمة في بحري، مش بعيدة عن هنا انتي عرفاها، بس هتاخدي المفتاح وهتقعدي هناك لوحدِك وأنا هروَّح.

-تمام، موافقة.

-طب لو سألُوني عليكي؟

-قوليلهم إني سيبتك ومشيت وانتي روَّحتي.

-ربنا يستر من جنونك دا.

أعطَت «غادةُ» مفتاح الشقة لها ورحلَت من البار، وهي جالسة ومُنتظرة، الوقتُ يمر وهي مازالت جالسة، إلى أن أتت الساعة الثانية ليلًا، قامت بدفع الحساب، ورحلَت لشقة «غادة» ببحري.

مرَّ عشرون يومًا آخرين وهو يجلِس بجوارها، عشرون يومًا يزيح الألَم عن صدرها، عشرون يومًا حدثَ فيهم الكثير، إلا ما أرادته.

عشرون يومًا.. تم فصل «د. عصام» عن عمله، عشرون يومًا حاولَ بكل جهده أن يُواسي وفاةَ أبيها، عشرون يوميًا وهو الأقرب إليها، عشرون يومًا مُراجعة مع الأطباء حتى أثبتوا أنه شفي تمامًا، و»وسام» تجلِس معه تكتُب التقرير، وها هو سيخرُج من المصحة، سيعود طبيعيًا ولكن لن يكُون أبدًا كما كان، ينفُث دخان سيجارته في حزن، وهي تكتُب وتمسح، تكتُب وتُقطِّع الورق!

انتهت الفترة، انتهى الإدمان، وانتهَت رحلتي مع «وسام»!

-«وسام» أنا بحبك.

قالَها بدون أن ينظُر إليها، قالَها وهو يُلقي بسيجارته في سلَّة الزبالة، لم ترُد «وسام»، كانت تعلَم أنه لا فائدة من أن تحب شخصًا لم يتغيَّر، هو علاج فقط من الإدمان ولكنه مازال الغامض الذي تخلَّى عن كل شيء، ستُحب من يموت يوميًا من الألم والذكريات، من ستُحب! جسد فقط! الروح يا صديقي هي سِر الحب، وإن لم تعشَق الروح فأنتَ لم تُحب!

-مُقابل؟

قالَتها لتكسر الصمت الذي سادَ عليهما مُنذ دقيقتين.

-مِش فاهم.

- انتَ مش هتعمل حاجة ليه، انتَ اتعالِجت من الإدمان، متعالجتش نفسيًا.

-عايزة إيه مُقابل؟

-ارجَع اكتِب، عايزة رواية.

-بس أنا بطَّلت، مش هكتِب تاني.

-شوفت! ازاي هوافِق على حد مُعرَّض في أي لحظة إنه يرجع مُدمِن! ازاي هوافق على شخص عمَل اسم لنفسه واتخلَّى عنه علشان الدنيا ضرِبت فيه شوية، أيًا كانِت ظروفك، بس احنا بنعيش على الحِلم، على المكان اللي اتخيَّلناه من صغرنا! التخلي عن الحلم هو التخلي عن الحياة.. تفتكِر هقبَل حد اتخلى عن حياته؟!

صمتَ ولم يرُد عليها، أوجعتهُ كثيرًا بكلامها، أشعَل سيجارته الثانية وهو ينظُر للحديقة، وهي أخذَت أوراقها ورحلَت وتركته وحده في الغرفة، شعر أنه سيظل هكذا، وحيدًا، شابٌ قاربَ السابعة والعشرين ولم يُحقِّق شيئا سوى أنه

كتَب بعض السطور التي يمل الناس من قراءتها، تريده أن يعود، يكتُب لهؤلاء من لم يسمعهم أحد، يكتُب للَّيل والقهوة، يكتُب على أنغام الموسيقى الحزينة، يكتُب على صوت كمان نيكوس المنتحِر، وعلى طريقة إسماعيل أدهم من ألقى بنفسِه في البحر ومات غريقًا وفي جيبه رسالة أنه سئم من الحياة! يكتُب لمن فقدوا القدرةَ على الكلام...

كان الاختيار صعبًا.

أيكتُب لأنه أحبها! أم يعود طبيعيًا مثله مثل أي شخص! كان صعبًا للغاية، قبلَ أن يجِد أن نار السيجارة أحرقت إصبعيه بدون أن يُلاحظ ذلك وتسقِط منه! أمسكَ هاتفه وهو يفتح الفيس بوك الذي لم يفتحه منذ شهورٍ طويلة ليجد صورتَها خلفية شاشته، ذلك الملاك الذي أُنزِل عليه، من أين أتيتِ!؟ ولِمَ أتنازَل هكذا لأجلك!؟ تُشبهين تلك اللوحة التي ظللتُ أنظُر إليها لساعةٍ لأكتب شيئا، تُشبهين أمي وأختي وصديقي محمود، تُشبهين كل ما هو جميل يا «وسام»! ورغم ذلك أحببتي سطوري مع أنها لم تُشبهك قط!

أبعدَ الهاتف عنه وجلس على الطاولة وأخرج مجموعة من الورق الذي كان معه من أول يومٍ دخَل فيه المشفى، ليبدأ في الرسم!!!

***

الفصل الثامن عشر

ستختار أضعَف الطُرق لتنجو، ستختار أن تموت لتحيا، ستختار الفساد والعبَث، ستختار نفسًا لم ترِدها، ستختار كل شيء بسبب قدَرك الذي كُتب لك من قبل ولادتك، ستختار أن تمشي كما كتَب إلهك لك!

***

مرت أربعة أيام وهو يعيش مع «ميرنا» في الشقة، يومان وهو مازال ممسكًا بيديها ويُحدِّثها، يومان وهو لا يفعَل شيئًا إلا النظر لعينيها التي خبَّأت الكثير، إلى حكايتها التي لم تغِب عنه قط، إلى روحها التي سكنَته واستقرَّت، مازال يتحدَّث ويُخبرها أنه سيعالَج لأجلها، رغم أن ماله قد سُرق! ولكنه سيعالَج ويأخُذها معه، أو يأتي إليها، وضع يديه على شعرها الأسود يمسح تلك الدماء التي يراها عليها دائمًا، يقترِب منها أكثر ليحتضنها، قبل أن يفقد عقله المسيطِر ويُخرجه من خياله، لتجف عيناه، لا بكاء، بارَت عيناه، توقَّفت.

حاولَ أن يقِف ويذهَب للبنك لسحب ما تبقى من مال، تبقت آخر أنبوبة صغيرة، يريد شيئًا يكفيه لتلك الأيام المقبلة والباقي للمصحة.

يمشي بخُطواتٍ مترنّحة ويصطدم بالناس، ويعتذِر ويُغنِّي، يُغني لأن الموسيقى كانت عامله الأول والأخير، كانت الأغاني هي خير بديل لكل كارثة يُصاب بها، إلى أن وصلَ أمام البنك وصعدَ وسحبَ رقمًا وجلس ما يُقارب الخمس عشرة دقيقة إلى أن أتى شخص ذو بذلة أنيقةٍ وجسَد مليء بعض الشيء، ونظَّارة مُربعة وشعر أصفَر ناعِم وعيون خضراء وبدون لحية أو شارب، جلسَ ووضعَ يديه على قدمي:

-البقاء لله.

لم أنظُر له.

-كانِت عزيزة علينا كلنا والله.

أنتَ لا تعرفها، ولا أحد في الاسكندرية يعرفها، يبدو أنك تحاول أن تسخَر مني، أزحتُ يديه من على قدمي وبدون أن أنظر إليه.

-أنا عارِف إن الموضوع عليك، صعب.. بس أنا عارف إنك راجل وتقدَر تتحمِّل المسئولية.

كنتُ ألعَن الوقتَ وأنظُر لساعتي وأتمنى أن ننتهي وأرحَل من هذا المجنون.

-بس صحيح انت مجتش ليه العزا، مشفتكش واقِف!

كنتُ أحاول أن أفعل أي شيء ولا أستمِع لذلك الهراء.

-طيب اتكلِّم، أنا عارف إنها صدمة كبيرة بالنسبالك، بس هي سابِتَك وانتَ راجل.. تقرير المستشفى قال إنها سكتة قلبية، حاوِل تفُوق وتخرُج من الاكتئاب دا، والله كانت طيبة على الكل، الله يرحمِك يا حاجة «زينب»!!!

نظرتُ إليه ووجدتُ جسدي يرتعِش بكل قوةٍ، ارتعشَ جسدي كمن لدغَته أفعى سامة، وقفتُ بهدوءٍ ورحلتُ بخطواتٍ بطيئةٍ وهو ينادي علي بدون أن ألتفِت إليه.

-يا أستاذ «آدم»، يا أستاذ «آدم»

خرجتُ من البنك وأوقفتُ إحدى سيارات الميكروباص وبعد عشر دقائق أنزلني السائق ومشيتُ للمنزل، اشتقتُ إليكِ كثيرًا يا «زينب»، ربما لم يبقَ لي إلا أن أرتمي في حضنك، وأعلم أنك تحبِّينني وستغفرين لي، اشتقتُ لمحادثاتنا التي لا تنتهي، لهزاري الثقيل معك، ودعائك الذي لم يُستَجَبْ... لم أعلَم كم من

الوقت مشيتُ لأنظر إلى بوابة العمارة، صعدتُ السلالم، ينظُر إليّ سكان البيت باحتقار، ينظرون إلى هذا العاق الذي غاب عن أمه وتركها تموت بدون أن يأخُذ عزاءها حتى، ينظرون إليّ نظرات كادَت أن تقتُلني، ولكني ميِّت بالفعل!

أخرجتُ المفتاح الذي لم يخرُج من جيب بنطالي أبدًا ودخلت الشقة هُروبًا من أعيُنهم إلى ملجئي الوحيد -حضن أمي- دخلتُ وأنا أنظُر للبيت باشتياقٍ وأنادي بصوتٍ عالٍ:

-مـــامـــا !

لم أتلقَّ إجابةً... شككتُ أنها نائمة، اقتربتُ من الغرفة وكنتُ خائفًا أن أفتحها ولا أجدها، وبجوار الغرفة وصوتي العالي:

-ماما اصحي أنا جعان!

لا إجابة.. طرقتُ البابَ مرَّتين وعيني تجمَّدَت لا دموع تتحرك، أبكي من الداخِل...

-ماما أنا رجِعت ومش هزعلك تاني أقسم بالله، مش عايزة تعرفي ابنك عمل إيه، أنا حبيت تاني، ونسيت «روان».. «ميرنا» يا ماما، «ميرنا» عروسة ابنك، اللي كبر وكنتي بتتمنِّي تفرحي بيه وتشيلي عياله! أنا عارِف إنك سامعاني ومِش هترُدي عليا علشان زعلانة، بس توبت وعايز...

سقطَت دمعةٌ من عينه لا إرادية:

-عايز حُضن أخير منك يحسِّسني إني لسه عايش!

فتحَ باب الغرفة بخوفٍ ألا يجِدها، يفتح الباب ببطءٍ وحذرٍ شديد، ليجد السرير فارغًا والمصحف فقط موضوع على سريرها!

ليخرُج سريعًا إلى الشارع وهو يمسَح دموعه، ليعود للشقة، لـ»ميرنا»! ركب الميكروباص ووصل إلى الصيدلية مجددًا ليأخُذ سرنجةً أخرى، ويصعَد للشقة في صمت...

جلسَت في البار لليوم الخامس بعيدةً عن أهلها ولا تعرف عنهم شيئا، كل ما تُفكِّر فيه هو متى تراه، تتحدَّث معه... كان التفكير الأول والأخير الذي يدور في عقلها.. جلسَت في البار تشرب سجائرها إلى أن أتت سيدة ممتلئة الجسد قليلًا ترتدي فستانا مفتوح الصدر وقدماها عاريتان إلى أعلى الركبة، وجلست بجوارها لم تنظُر إليها ومازالت تُدخِّن سجائرها وتنظُر للباب لكل ما يدخل ويخرُج!

-اللي انتي مستنياه مش جي، بطَّل ييجي.

نظرَت إليها!

-وانتي عرفتي منين إني مستنية حد!

-مراقباكي يا حبيبتي بقالي خمس أيام، فكَّرتك واحدة من إياهم وجاية تقطَع لقمة عيشي، بس القعدة دي وقدام اللاب وجوه في الضلمة لوحدِك، دي قاعدِة حد خايف ومستني حد برضو!

-وانتي بقى تعرفيه منين اللي أنا مستنياه دا!

-هيهيهيهي (ضحكَت بخلاعة) دا أنا كنت أول زباينه قبل ما مقصوفة الرقبة دي تاخده مني.

نفثَت دخان سيجارتها:

-مقصوفة الرقبة! وانتي!! لا يبقى مش هو، دا غلبان!

-مش هو سي «آدم» برضو؟

نظرَت لها بدهشة، وأطفأت سيجارتها:

-أيوه هو هو، تعرفي عنه إيه وقاعِد فين؟!

-حيلك حيلك، أعرَّفِك بنفسي الأول، أنا الست «هيام»، مُتخصِّصة الدلع هنا في البار.

-لا مش عايزة أعرف قِصّة حياتك، أنا عايزة أعرف مكانه بس!

-يبقى تدِّيني.

وأشارَت بأصابع كفها كله!

-لا كتير! معييش المبلغ دا.

-يبقى اللي معهوش ميلزموش يا عنيا، سلام.

وقفَت وقبل أن ترحَل أمسكَتها «روان» من يديها بقوة:

-أرجوكي، أنا أخته وبدوَّر عليه وملناش حد غيرُه في الدنيا، مختفي من البيت ومنعرفش عنه حاجة، علشان خاطري ساعديني.

جلَست «هيام» مرةً أخرى وتغيَّرَت ملامح وجهها.

-يووووه، صعبتي عليا، طيب هقولك ومش عايزة حاجة.

-ها فين!!؟

وصفَت لها العنوان بالتفصيل، وقالت لها على الشقة أيضًا، فخرجَت «روان» مُسرعة، وقبل أن تُحاسب أمسكَت «هيام» يديها:

-عندي أنا المرادي.

نظرَت لها «روان» بشُكر وامتنان.

-يلا يا ختي انتي لسة هتبصيلي، الحقي أخوكي.

تركَتها ورحَلت مُسرعةً، وكانت تجري في الطريق، وكانت حوالي الساعة الحادية عشر ليلًا، إلى أن وقفَت تحت العمارة التي وصفَتها لها...

ثلاثة أيام ولم تأتِ إليه، يجلِس وحدَه وسط الممرضات في غُرفته، يخرُج للجنينة ليتنشق بعض الهواء ويقرأ ويعود مرةً أخرى، يلوم نفسَه باستمرار على خطئه، لِمَ أخبرَها، لمَ لَم يُحافِظ على صداقتهما، أو وظيفتها كطبيبة له، ولكن كلامها كان صحيحا، بعيدًا عن اعتقاداتي.. صحيح!

أنظُر أمام المرآة لأجِد أن جسدي امتلأ قليلًا عما سبق، لآخذ القرار بأن أحلق شعري بالكامل، وبقيَت لحيتي فقط.

ذهبتُ للغرفة وأنا أرتدي بلوفرا أسود وبنطلون جينز أسود.. وجلستُ على المكتب وأغلقت كل الأنوار وأشعلتُ نورا طفيفًا من الأباجورة البعيدة، وبعض الورق أمامي وبدأتُ أكتُب أي شيء، صمتٌ يجتازني في كل كلمةٍ أكتبها! أريد أن أعود، ولا أريد، ولكني أحبها سأعود، وتتحمَّل هي المسئولية، أكتُب تارة، وأبكي تارةً، وأضحك تارةً، وأشطُب، وأسجِّل، أحاول أن أُخرج الجملَة كما تحسها من وجع، من ألَم، من اشتياق، من ذكريات، أحاول أن أشبهك كثيرًا فيما تفعل، أكتب لكم، أيها المكتئبون الذين لا حول لكُم ولا قوة، أكتُب للمراهقين والشباب، أكتب لمن كنتُ مثلهم يومًا وأصبحنا غُرباء، أكتب للا شيء وكل شيء...

مرَّ أسبوعٌ واثنان وثلاثة ولم تأتِ «وسام» بعد...

علمتُ أنها سلَّمَت التقرير ورحلت! وإجراءات خروجي لم تتبقَّ منها سوى

أيام، أيام قليلة، وإما أن أعود ومعي «وسام»، أو أعود إنسانًا عاديًا لا يميزني شيء عن الآخرين، أعودُ كما كنت، أحاول البحث عن وظيفةٍ بشهادتي، ولن أجدها.

أو أعيش كما عشت قبل إدماني كاتبا كئيبًا وبائسًا ومملا!

أو أعود لجرعاتي التي لم تخذلني أبدًا، أعود لعالمٍ كرهته ولكنه احتواني بكل شيء، أعود لنظرات الناس البائسة وجروحهم التي لم تشفَ، أعود أو لا أعود، تلك هي مُشكلتي الآن، وربما هي أكبر مشكلة وُضِعت فيها، ولكن لأنني أحبك يا «وسام» سأكتب، ربما ستسعني الحياة لأن أُخبرك أنك مازلتِ بداخل الروح، لم أتحوَّل إلى جسد بعد، مازال بمقدوري الإبداع والكتابة، وأنا أكتب هذا الكلام أمام ورقةٍ وأعلَم أني لن أرسلها لك، كم أنا مُتناقِض!

سأكتُب لأني لم أتعلَّم الكتابة إلا على يد جرحي وحُزني، لم أتعلَّم الكتابة إلا عندما رافقتُ الليلَ والقمر والسجائر والقهوة... ليس العمق في هذا، العمق في الجرح، العمق الحقيقي هو مدى إصابة قلبك وتغوص بداخله لتحاول أن تكشف الألم، تُحاول أن تطيب نفسك بنفسك، فتفشَل وتُعيد التجربةَ وتفشل إلى أن تصمُت، وتسمع تلك الموسيقى الهادئة على قمة روحك، وتندمِج معها مع شتاء الإسكندرية، أمواج لم تتوقَّف يومًا عن النداء، كان كل شيء بداخلي صعبا وباهِتا، كان كل شيءٍ يدعُو للموت، ولكني قاوَمتُ قدر الإمكان، قاوَمتُ وأنا أعلَم أن النهاية ليسَت هنا، قاومتُ إلى أن وجدتُ نفسي أضع الأنبوبةَ بين أنفي وأستنشِق أول سطرٍ فالثاني فالثالث... إلى أن نسيتُ من أكون! وما هي مُشكلتي، مع كل سطرٍ كان يدخُل عقلي كنتُ أرى أن الحياة لا قيمةَ لها، كانَت مُتعةً لم يُدركها أحد إلا من عاشَها.

كل يومٍ يمُر وأنتي بعيدة كنتُ أشعُر أن النهايةَ تقترِب، كنتُ أقرأ الكتُب وأحتسي الكافيين وأملأ النيكوتين في صدري عسى أن أُبعدك قليلًا عن عقلي، أو أكتب، ولكن ماذا أكتب!

أكتُب أني اشتقتُ لمن أنقذَتني في اللحظات الأخيرة، من أيقظَت الروحَ بداخلي مُجدَّدًا، أكتُب لكِ وأنا أعزف على أوتار حُزني وألمِي، أكتُب وأنا أرى العالم ينهار في كل مرةٍ ترحلي، وأن اليوتوبيا التي تحدَّث عنها سُقراط وأفلاطون خُلقَت لأنكِ فقط من تستحقِّيها!

ترى لو كنتُ رأيتُكِ في الماضي كنتُ سأتغيَّر عما أنا فيه!!؟

بالطبع لا.

كنتُ سأظل كما أنا، ذلك المغرور الذي لا يرى سوى نفسه، ذلك المتعجرِف الذي كان ينظُر لنفسه أنه ليس ببشر، وأنه أحق بكل شيء، كنتُ يا «وسام» أنظُر لنفسي كإبليس تمامًا عندما نظر لآدم.. كان من الصعب علي أن أسجُد وأتنازَل عما وصلتُ له لمجرد شيء سخيف يسمى الحب، كنتُ سألعَن كل من يُحب وكل من أرادَ أن يُحب، كنتُ أعلَم أني سينتهي أمري إن أحبَبت، مثلنا يا عزيزتي ضعافٌ للغاية عندما نُحب، نقبَل بكل شيء، يتحول الطرف الآخر إلى إدمان، ليس شخصًا عاديًا، نفقِد السيطرة على الأنا، نُصبِح بدون قيمة، نحاول ونهرب، نُحاوِل ونهرب، لنتفاجأ أننا في الأساس لم يكن هناك هروب لنا، فكل الطرق مشابهة لبعضها، ويرحَل ونبقى هنا وحدنا في هذا العالم المشوَّه، نجري وراء سراب، نجري وراء خيالات تمنيناها ودعونا الله كثيرًا أن تتحقَّق، ولم يستجب!

أتعلَمين أن الاختيار الأصعب دائمًا هو الأكثر صوابًا! ولذلك سأقطَع كل هذا وأكتُب...

سأكتُب أن الحياة قاسيةٌ، وما لي حول ولا قوة، سأكتُب لليأس والحزن،سأكتُب لكِ سطورًا لم تُشبهك!

***

الفصل التاسع عشر

(اشطب ما كتب.. الحياةُ ليسَت عادلَة، وستظل وحيدًا، جربت كل أنواع الهروب، بقيَ الهروب الأخير، اهرب من الدنيا، اقطع أوراق القدَر، ضع النقطةَ التي خشيت كثيرًا أن تكون هي، اسحَب منه القلم وضع النقطةَ أنت بقلمِك)

***

جلسَ على المقعَد وهو يُجهِّز الجرعة الأخيرة لتُعيد اتزانه، اشتاقَ كثيرًا لـ«زينب» و«ميرنا»، اشتاقَ للحظاتٍ قليلةٍ معهما.

ربطَ ذراعه جيدًا لتظهَر العروق، وأعطاها لنفسه بسرعة، وبقيت سرنجة أخيرة فارغة بجواره، جلس ينظُر لأمه ووجهها الملائكي، يسمع صوتها في كل صلاةٍ تدعو له بالهداية، ينظُر لـ«ميرنا» وإلى حديثها الطويل عن نفسها ويتذكَّره كلمة كلمة...

أنا «ميرنا» فؤاد علاء.

طالبة في إعلام، أو كُنت طالبة في إعلام، الحكاية بدأت من سنتين تقريبًا، كان فيه واحد مجنون بيحبِّني، وأنا كمان كُنت بحبه، بس بحُكم إن احنا دايمًا بندوَّر على الشيء اللي ناقِصنا أو مش بنحس بيه مع الشريك فبنسيبه، وأنا سيبتُه، كنت حسَّاه صُغير، كنا من نفس العمر تقريبًا أو أنا أكبر بسنَة، بس نفس السن الدراسي، كان صوته جميل جدًا، بس عقلُه صغير، مواقف كتير كان بينزِل فيها من قلبي بسبب صغره وعدم قيادته للمواضيع و المشاكل، حسّسني إني مسئولة عنه، فاتقدِّملي حد كان كويس، شاب مشهُور ومُوظَّف بنك وعنده عربيته وشقته في التجمُّع ووافِقت وسبتُه.

طبعًا حاوِلت كتير أكرّهه فيّه بس كان مُتمسِّك بيا كأني آخر بنت هيشوفها في حياتُه، مش هكدب لو قُلت إنه كان بيعشَقني، بس أنا معرفتش أحبه، هي جَت كدا، مش بمزاجي، المهم حبِّيت «هشام»، موظف البنك، وفضلنا مع بعض حوالي سنة، طبعًا كان شوية يسِيبني وشوية يرجَعلي، شوية يحسِّسني إني ملِكة الكون دا، وشوية يحسِّسني إني مليش أي قيمَة، طبعًا لأني كنت محتاجاه فكَّرتُه حُب! واتمسِّكت بيه، قبل ما أعرف إنه إنسان وسِخ، وعلاقاته كانت كتير، طبعًا هنا كانت صدمة بالنسبالي، وحسِّيت قد إيه أنا بحب «حسن»، حسِّيت إني كُنت عبيطة مش هو، ازاي ممكن بِنت تلاقي حد يحبها بكل حاجة عنده وتسيبه! المهم في اليوم اللي كُنت مقررة فيه إني هسيب «هشام» رحت شقة علشان كان هيقابِل واحدة هناك، طلِعت ولقيته كان كمين.. واغتصَبني!!

طبعًا روَّحت بجري ومُنهارَة، وحكيت لوالدي ووالدتي كل حاجة، بس كان مرتِّب كل حاجة، رفعنا قضيَّة وخسرناها، ووالدي اتعصَّب عليا وحبَسني وكل يوم ضرب وإهانة وذل وكلام قذِر مفيش بِنت تحب تسمعه!

لحد ما قرَّرت إني أدوَّر على «حسن»، هو الوحيد اللي هيعرَف يرجَّعلي قيمتي، فضلت أدوَّر عليه كتير الحقيقة، لحد ما واحدة صاحِبتي جابتلي مكانه في إسكندرية، لأني أنا أصلًا من القاهرة، مدينة نصر.

سرَقت اللي في البيت وهرَبت لاسكندرية وعرفت فين مكانُه، رحتله لقيت إنسان تاني خالص قدامي! كان مُدمِن هيروين وأزايز الويسكي جنبُه ودراعاته الاتنين بايظين من الحقن! كنا فوق السطوح ساعِتها بصِّلي وهو واقِف على سور السطوح، طبعا طلَبت منه إنه ميعملهاش، وأنا بحبه ومش عايزة حاجة من الدنيا غيره، كنت بقولها لأول مرة بصِدق، بقولها وأنا حاسة بكل كلمة، علشان كدا يا «آدم» لو قولتلك بحبك، اعرف إنها يوم ما تطلَع مني هتبقى بصِدق.

طبعًا سمعني ومش فاكرة قال إيه، كان صوته ضعيف، قبل ما يرمي نفسه،

وينتحر!

ساعتها حسِّيت إني تايهة، حسِّيت إن جزء كبير ضاع مني، للعلم هو كان السطوح بتاع البيت دا، وقرَّرت إني أكون هو، كإنه طبَع روحه المتكسرَّة جوايا، لما انتحَر مسابش حتة فيا سليمة، كُنت شبه الكوباية الإزاز ووقِعت من نفس الدور اللي وقِع منه حسن! المشهد دا لسه في خيالي مبيروحش، بشوفه كل يوم يا «آدم»، بشوفه كل يوم!

وأنظر إلى أمي وهي تبكي في صلاة الفجر بأن ينجيني من كل سوء، وأنا أحدِّثها: أيوجد أسوأ مما أنا فيه يا أمي!

طرقَ البابَ ولكنه لم يلحَظ أنه لم يُغلِقه جيدًا، كان مفتوحا قليلا لدرجة أن أي أحد يستطيع الدخول بسهولة، واختفت أمه و»ميرنا» من خياله، ليلعن كل ما في الأرض، يسأل نفسه، أوشك مفعول الحقنة على الانتهاء، لم يستطِع أن يقف لينظُر للساعة، حرَّك يديه بصعوبةٍ ليسحَب السرنجةَ ويربط يديه بقوة أكبر، سرنجة فارغة!

يطرُق الباب مرةً أخرى ولا يلقَى إجابةً، ليدخُل ويتفاجأ أن «روان» تقِف أمامه!! يبدو أنها الجزء الثاني من التخيُّلات!

-هو.. هو، تقريبًا علشان وحشتيني فعَقلي جابِك!

نظرَت له وهي تبكي، كيف أصبحتَ على ما أنت عليه، وكيف تركتُك! لم تفهم ما قاله، حاولَت أن تمنَع دموعها قدرَ الإمكان وهي تنظُر بفزعٍ لتلكَ الحقنة الفارغة التي يُمسكها بيده، وبصوتٍ ضعيف:

-«آدم».. أرجوك سيب اللي في إيدك دا.

-لا.. اللي في إيدي دا هو اللي هيخلي وجودِك هنا حقيقي ولا لا! بس فين الورد اللي كان على وشِّك؟ بقيتي مطفية، شبهي!

-والله العظيم أنا حقيقية، أنا «روان» وواقفة قدامك.

علَت على وجهه ابتسامة استهزاءٍ، وغرزَ الحقنة الفارغةَ في ذراعه ليدخُل الهواء بالكامل للدم.

نظرَت له بفزعٍ وهي تجري عليه وتصرخ:

-«آدم» لا!!

سحبَت السرنجة من ذراعه بعد أن أدخلها كلها، واحتضنتهُ بقوةٍ وهي تصرُخ:

- أنا «روان» يا حبيب قلب «روان»، أنا «روان» يا «آدم» سبب اللي انت وصلتله، أنا «روان» يا حبيبي، ليه يا «آدم» ماعطيتليش فرصة تانية! ليه يا حبيبي.

قالَتها وهي تصرُخ وتبكي، بكَت كما لم تبكِ من قبل، بكَت على كل شيءٍ ضاعَ من يديها، بكَت ولا تعرِف بكاء الحسرةِ كم يكون موجعًا، بكت وهي تتركه من حضنها وقد فارقَ الحياة! وفارقَها، هو فارَق الحياة منذُ أن فارقهُ كل شخصٍ قريب منه، فقدَ الروح عندما رحلتِ، وترك جسده خاليًا تمامًا عند عودتك، مات، ككل شيء جميل وينتهي ببؤسٍ وحُزن وجرعاتٍ من الكحول ويموت!

احضتنتهُ للمرة الأخيرة قبل أن تقِف وتصعد الشقة الصغيره فوق السطح والمطر يهبِط بقوةٍ عليها وهي واقفة كتمثال ينتظِر موعد تحطيمه، واقفةً تنظُر لتلك الشوارع الخالية من الناس، رحل «آدم»! وها هي تنتظر دورها! تنتظر صورتها الجديدة، تنتظر إلى أن ينتهي الأمر، أو أمرها...

مازالَ في غُرفته شهرًا كاملا ليُكمِل الشهر السادس في المصحَّة، غدًا تقريره بالخروج وعودته للحياة مجددًا.

نور الأباجورة البعيدة في سكونِ الليل، وشهر كامل لم ينَم، يكتُب فقط، يكتُب

لمدة شهر ولا فائدة!

يمسك هاتفه وبعد فترةٍ طويلةٍ يفتح الفيس بوك الخاص به ليجد الكثير من الرسائل حول اختفائه وتعليقاتٌ كثيرة على آخر ما نشر وصوره... عدد المتابعين يزيد رغم أنه بعيد منذ فترة، وعقله يدور بالأسئلة، من قد يُحب البؤس والكتابات الحزينة، حتى كافكا لم يسمَع أحد عنه إلا بعد موتِه بعشرات السنين!!

(كاتب البؤس الأول على السوشيال ميديا)، تعليقٌ رسمَ على وجهي الابتسامة لأرى ذلك المستطيل الذي يُحفِّزني دائمًا على الكتابة.

(بماذا تُفكِّر)!؟

قلتُ في سري وأنا أضحك، أفكِّر لو أن أبدأ من جديد، بيتٌ صغير أعيش به أنا وتلك العنيدة «وسام»...

وضغطتُ على المستطيل وكتبتُ:

(روايةً جديدةً بمعرض الكتاب ٢٠١٩)

وأغلقتُ الهاتِف بعدها وعدتُ للكتابة.

كنتُ أكتُب السطور الأخيرة في روايةٍ لم يقرأها أحد، أكتُب للحب، والموت! أكتُب للنهايات السعيدة التي لم تكتمِل، أكتب لكِ وأنا أحاول التماسُك أمام عينيكِ، أكتُب دائمًا عكس ما أشعُر به لأسعدك، أكتب لأن تلك الطريقة الوحيدة التي تُعبِّر لك عن حبي، أكتب يا «وسام» كل ما تركتُه خلفي، من ألمٍ وذكرياتٍ وكوابيس لم نستطِع الاستيقاظ منها! كوابيس تحوَّلَت لحقيقةٍ مُريبةً!

أكتُب للخذلان والبُعد والفناء، والهزيمة.

أكتُب ولعلهم يشعرون!

وضعتُ رأسي على المكتب ولم أعرِف كم مرَّ من الوقت، لأجد يدًا تهزني وأنا نائم:

-«عُمر».. «عُمر»!!!

استيقظتُ وأنا أنظُر لتلك الفتاة التي تُوقظني... «وسام»!! مسحتُ عيني مُسرعًا لأتأكَّد مما أرى! وبالفعل كانَت هي، كانت تلك المرَّة أكثر جمالًا مما كُنتُ أراها، غابَت عني شهرًا كاملًا، اشتقتُ إليها كثيرًا.

-انتي سلِّمتي التقرير! إيه رجَّعِك!

-عرِفت إن مينفَعش أسيبك، انت اللي زيَّك مش كتير، ومش ضامنة بصراحة ألاقي زيَّك تاني!

-علشاني ولا علشان الرواية!؟

-لا أنا قولتلك اكتب علشان أعرف انت مُستعِد تعمِل حاجة علشان غيرَك ولا لا، مُستعِد ترجَع تاني ولا لا، أنا مش هاممني رواية قد ما هاممني إنَّك تكون رجعت «عمر»، بدون أي غموض، أو حُزن، عايزة الكاتِب اللي ساب الهيروين ورجع للكتابة، رجع لنجاحه.. ها بقى فين الرواية؟

ضحكتُ من قلبي لأول مرةٍ ونظرتُ لعينيها في ثباتٍ ونطقتُ بهدوء:

-في درج المكتَب، طلَّعيها واقريها.

اتَّسعَت ابتسامَتها واقتربت منه وهي تحتضنه، وبجانب أذنه بصوتٍ هادئ وعميق قالت:

-بحبَّك.

وقبل أن ينطِق ابتعدَت عنه وفتحَت الدرج لتُخرِج الورق وتُخبره:

-آه قبل ما أنسى، في واحِد صاحبَك مستنيك برا.

-صاحبي مين!!؟

-مش عارفة بصراحة، اطلع وشوفه.

تركتُها تقرأ الرواية وخرجتُ أنا للحديقة أبحَث عن ذلك الصديق لأتفاجأ بشخصٍ يقف بجواري ويقول لي:

-مش كدا الحياة بقِت أحسن؟

اشتقتُ لهذا الصوت كثيرًا، أنظُر بجواري لأجد «محمود» يقِف بجانبي ويضحَك، لأنظُر له وأحتضنه بشدة، أفتقدك كثيرًا يا صديقي وأخي وأبي وكل شيء...

وجدته يضحَك وأنا أحتضنه بجسدي الضخم وهو جسده نحيف طويل وذقنه قصيرة وعيونه البنية والجاكت الذي لا يرتدي غيره منذ أن كنا في الثانوية!

جلسنَا على الدكة.

-أخبارَك إيه؟

-بقيت كويس.

-شوفت بقى، مش تقولي هقتِلك!

-هاهاها.. كنت بهزَّر يا عم، انت مش شايف رجلَك عاملة ازاي؟

-كنت خايف لتضيع قُدَّام عيني، أنا وانتَ مكنش لينا حد في الدنيا، ومكُنتش هسمَح إنك تضيع، مليش غيرك يا بني والله، فكرِة أن الواحد يعيش يتيم

صعبة، بس بنلاقي اصحاب بيكونوا اخواتنا وأهلنا، فبيهونوا علينا الحياة.

-صح.

-ست شهور كانوا كتير لحد ما إدارة المستشفى كلِّمتني.. احكيلي وصَلت لفين؟

-وصلت لزوجة ورواية جديدة.

-حلاوتك.. مين دي؟

-مش مهم كتبت إيه؟

-يا عم انت بتكتِب طول الوقت، المهم العروسة مرات أخويا.

-الدكتورة اللي كانِت بتعالجني!

-«وسام»؟

-انت تعرفها منين؟

-كنت بتصل بيها من المستشفى أطَّمِّن على حالتَك.

-أيوة يا سيدي هيَّ «وسام».. تعالى بقى معايا نسلِّم عليها ونرجَع بيتنا.

تحرَّكَ هو وصديقه ناحية الغرفة رقم (١٠) غرفة «عمر عبد الحميد»، يدخُل هو وصديقه ليجدا «وسام» تقرأ الروايةَ وهي تبكي، متأثرةً بكل ما كُتِب، لم يريدا إزعاجها، وجلسا هما الاثنان على السرير خلفها بدون صوت، ظلوا كذلك لمدة ثلاث ساعات تقريبًا حتى أنهت «وسام» آخر ورقة بالرواية وهي تمسح دموعها، وتلتفِت خلفَها لتجد «عمر» ومعه صديقه، وهي تنظُر له وعيونها حمراء من كثرة الدموع:

-هو ليه «آدم» مات في الآخر!!

وقف وأمسكَ صديقَه واقترب منها وهو يُمسِك يديها بقوة:

-كان لازم يموت علشان يقدَر يعيش من تاني.

أخرَج هاتفَه وفتحَ موقِع التواصل الاجتماعي.. (فيسبوك) ليكتُب:

جُرعة اكتئابٍ كافية لقتلِك.. قريبًا.

وسحبَها من يدها وهي على يساره و»محمود» على يمينه، ويتحرَّك الثلاثة سويًا وهو يُفكِّر بصوتٍ عالٍ وسطهم...

حلو الاسم، جُرعة اكتئاب كافية لقتلك، بس مش هيموتوا!

***

الفصل العشرون

(في النهاية.. الحزن سيستمر طويلًا، ولكنه لن يبقَى، وإن استمرَّ للنهاية فتأكَّد أن تلكَ ليست النهاية بعد، لا تكُن مثل «آدم».. «عمر» لم يُكسَر برغم كل ما مرَّ به!)

***

ما معنى الأمل.. هو أن ترى بصيصَ النور من وسط عتمة الظلام الحالكة، أن تؤمِن أن هناك من سيُنقذك في اللحظات الأخيرة، أن كل نفَسٍ تتنفَّسه هو بداية جديدة حتى يأتي النفس الأخير.. سترحَل وتبقى روحك بين الناس، ستبقى وسط جيلك، سيأتي ذلك الشخص البعيد الذي لم تتوقَّع يومًا أن يدعو لك أو يتذكَّرك، اعمل اليوم، اجتهِد، اصبر، استعِن بالله!

جلستُ أمام الشاطئ وأنا أدخِّن آخر سيجارةٍ قد أشربها بعمري، كان عَهد أمام نفسي ألا أعودَ إليها، وحبيبتي كانت بجواري تمسَح شعري وهي تنظُر إليَّ وقالَت:

-ماذا يُثبت أنك مازلتَ بخير؟

نفثتُ دخان سيجارتي بهدوء وقلتُ:

-عِند سقوطهم لم أسقِط، تمسَّكتُ بما تبقى من روحي ورحلتُ عنهم، وانتظرتُ شروقَ الشمس بعد ليلٍ كان أشد قسوة وقوة من ذئبٍ اكتمل القمر ليلتها، وسحبت شهيقًا قويًا وظلَّ في صدري للحظاتٍ، اختلطت فيها الذكريات بكل مرةٍ أخبروني فيها أني فاشل بكل لحظة عشتُها معك، بكل وعدٍ كاذبٍ، بكل سيئ حدث وطردتُه تمامًا من عقلي وأنا أُخرج زفيرًا.. وهنا وقفتُ كفارسٍ في معركةٍ أقسَم فيها أن لا يُهزَم.. وعاد مُجدَّدًا ليفاجئ الآخرين بانتصاراته التي لم

يكُن يتوقَّعها هو نفسه، هنا أيقنتُ أني مازلتُ بخير!

النهاية

شكر خاص إلى: «وسام عبد الحميد».. مذيعة الراديو المستقبَلية.

شكر ثاني إلى : أحمد حماد.. أخي الكبير وصديقي المقرب <٣

منتظِر آراء الناس في الرواية على هاشتاج #جرعة_اكتئاب_كافية_لقتلك.
مُنتظِر الانتقادات واللي شايفها رواية مملة وسيئة علشان أطوَّر مِن نفسي،
ومُنتظِر التشجيع علشان أستمر، أنا مُتمسِّك بآخر فرع موجود.. الكتابة..
شكرًا.

أكونت الفيسبوك: amr dammad (omr.amr.20)

التويتر: amr_hammad20

فصلة

للنشر و التوزيع

Fasla Publishing & Distribution

تواصل معنا :

01067000701

E-mail -: Fasla .Pub@Gmail .com

Facebook .Com/Fasla .Pub